أوليسا

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

المشروع الوطني للترجمة

الرواية العالمية

أوليسا

تأليف: ألكسندر كوبرين

ترجمة: د. هاشم حمادي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

العنوان الأصلي للكتاب:

Олиса

الكاتب: Александр Купрн

الناشر: РоссиЯ, 1890

المترجم: د. هاشم حمادي

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

-١-

دخل خادمي، وهو طباخي، ورفيقي في الصيد، يارمولا البوليسوفي الغرفة، محني الظهر، تحت ثقل حزمة الحطب، ورماها على الأرض بقرقعة، ثم راح ينفخ على أصابعه المتجمدة.

وقال، وهو يقرفص لدى فتحة الموقد:

- يا لها من ريح في الخارج يا بانيتش[1].

- إذن لن نذهب لصيد الأرنب غداً؟ ما رأيك يا يارمولا؟

- كلا... غير ممكن... ألا تسمع هذا العواء. الأرنب يرقد الآن، دون حراك... ولن ترى غداً أثراً واحداً.

ألقى بي القدر لستة أشهر كاملة في إحدى القرى الصغيرة النائية، في محافظة فولينسك، على أطراف بوليسية، وقد كان الصيد عملي الوحيد، ومتعتي اليتيمة. وأعترف أنه لم يخطر لي ببال قطُّ، حين عرضوا علي السفر إلى القرية، أنني سأشعر بهذا الملل، الذي لا يطاق. حتى إنني سافرت بكل سرور. وفكرت بيني وبين نفسي، وأنا جالس في عربة القطار: «إن بوليسيه... نائية... أحضان الطبيعة... عادات بسيطة... طبائع بدائية. أناس مجهولون تماماً، بالنسبة إِليّ، بعاداتهم الغريبة، ولغتهم المميزة... وعلى الأرجح أن لديهم كثيراً من الأساطير والحكايات والأغاني الشاعرية». وفي تلك الفترة (لا أخفيكم سراً) كنت قد

(١) من كلمة بان البولونية، وتعني الآغا السيد. [المترجم]

تمكنت من نشر قصة عن جريمتي قتل وحادثة انتحار، في إحدى الصحف الصغيرة، وأعرف، نظرياً، أن من المفيد للكتاب رصد العادات والطبائع.

لكن... إما أن فلاحي بير برود يتميزون بنوع من الانطوائية العنيدة، وإما أنني لم أكن ماهراً في استمالتهم - إذ اقتصرت علاقاتي بهم فقط على أنهم، ما إن يروني من بعيد، حتى يرفعوا قبعاتهم، ولدى وصولهم إلي، يقولون بتجهم: «غاي - بوغ»، مما يعني «فليساعدكَ الرب». وعندما حاولت تبادل الحديث معهم، راحوا ينظرون إلي باستغراب، ولا يفهمون الأسئلة المتناهية البساطة، ويندفعون دائماً لتقبيل يدي - وهذا تقليد قديم، موروث عن نظام الرق البولوني.

لم يمض من الوقت إلا القليل، حتى أتيت على قراءة ما لدي من كتب.

في البداية لم أشعر بالارتياح للتعرف إلى المثقفين المحليين، في شخص الخوري، الذي يقطن على بعد خمسة عشر فيرستا، وعازف الأرغن، المقيم معه، والشرطي المحلي، وكاتب حسابات من الضيعة المجاورة، وهو صف ضابط متقاعد، لكن الضجر دفعني للمحاولة، التي باءت بالفشل.

بعد ذلك حاولت الانصراف إلى معالجة سكان بير برود. لم يكن لدي من الأدوية سوى زيت الخروع، والكاربوليك وحامض البوريك واليود. وإلى جانب شحّ معلوماتي، فقد اصطدمت بالعجز التام عن وضع التشخيص، لأن أعراض الأمراض لدى جميع مرضاي واحدة لا تتغير أبداً: «ألم في الوسط» و«لا أستطيع الأكل ولا الشرب».

تأتيني، مثلاً، امرأة عجوز، وبعد أن تمسح بسبابة يدها اليمنى أنفها، والارتباك باد عليها، تخرج بيضتين من عبها، فأرى لثانية جلدها البني،

وتضعهما على الطاولة. بعد ذلك تروح تحاول الإمساك بيديَّ، كي تطبع قبلة عليهما. لكنني أخبئ يدي، وأحاول إقناع العجوز: «يكفي يا امرأة... لا داعي... أنا لست خورياً... هذا لا يجوز بالنسبة إليِّ... أين الوجع لديك؟».

- الوجع في الوسط، يا بانيتش، في الوسط تماماً، فلا أستطيع الأكل ولا الشرب.

- هل بدأ ذلك لديك من زمان؟

فترد على السؤال بسؤال:

- وهل أعرف؟ إنها تكوي، وتكوي. لا أستطيع الأكل ولا الشراب.

ومهما أبذل من محاولات، لا توجد أعراض أخرى محددة، بشكل أفضل.

وقال لي كاتب الحسابات من سلك صف الضباط، ناصحاً:

- لا داعي للقلق، فسيتعافون بأنفسهم. سيشفون على الفور. ولا أخفيك سراً أنني لا أستخدم سوى دواء واحد، هو النشادر. يأتي إلي أحدهم، وأسأله: «ماذا تريد؟» - فيرد بقوله: «إنني مريض». وعلى الفور أضع زجاجة روح النشادر تحت أنفه.. «شم» فيشم... شم أيضاً... «أقوى. فيشم... «هل خف الألم؟» - «يبدو أنه خف قليلاً...» - انصرف إذن، الله معك».

أضف إلى ذلك أنني سئمت لثم الأيدي هذا، (لا بل إن بعضهم كان ينطرح عند قدمي، ويروح يسعى بكل ما أوتي من قوة، أن يلثم حذائي). ومرد ذلك ليس الرغبة في التعبير عن الاعتراف بالجميل، بل هي العادة الكريهة، التي غرستها فيهم قرون العبودية والعنف. وكنت أنظر بدهشة إلى زهو كاتب

الحسابات من سلك الضباط نفسه، والشرطي، وهما يدسان أيديهما الحمراء الضخمة للفلاحين، لكي يلثموها...

لم يبق لي سوى الصيد. لكن في نهاية كانون الثاني حل طقس، أصبح فيه الصيد مستحيلاً. ففي كل يوم تهب ريح عاتية، وفي الليل تتكون فوق الثلج طبقة جليدية صلبة، فتجري الأرانب فوقها، دون أن تترك من ورائها أثراً. شعرت بالملل والضجر، وأنا محبوس في البيت، أصغي إلى عواء الريح، ومن البدهي أنني أقبلت بكل حماسة على التسلية البريئة، التي تمثلت في تعليم يارمولا البوليسي القراءة والكتابة.

غير أن ذلك بدأ بشكل غير مألوف. ففي ذات مرة شعرت فجأة، وأنا منكب على كتابة رسالة، أن أحداً يقف ورائي. وحين التفت، رأيت يارمولا، وقد اقترب، على عادته، في اللابتي[1] اللينة، دون أن يصدر أي صوت.

وسألته:

- ماذا تريد يا يارمولا؟

فرد بارتباك:

- إنني أتعجب من الطريقة، التي تكتب بها. ليت بمقدوري فعل ذلك، كلا، كلا... ليس مثلك - ثم أضاف، حين رآني أبتسم - يكفيني أن أكتب اسم عائلتي...

- وما حاجتك إلى ذلك؟ سألت مستغرباً... (لا بد من الإشارة إلى أن يارمولا هو الفلاح الأفقر والأكسل في بير برود كلها، وهو ينفق جعالته ودخله الفلاحي على الشراب، وليس ثمة في المنطقة كلها ثيران أسوأ من

(١) خف مصنوع من الألياف اللبية. [المترجم].

ثيرانه. وهو، برأيي، لم يكن أبداً بحاجة إلى معرفة القراءة والكتابة)، ومن جديد سألته بارتياب: - وما حاجتك إلى كتابة اسم عائلتك؟

فرد يارمولا بنعومة غير معهودة:

- الواقع يا بانيتش أنَّه ليس ثَمَّةَ في القرية شخصٌ واحد متعلّم. وحين تكون هناك حاجة إلى توقيع أرقة[1]، أو قضية في الناحية، أو شيء من هذا القبيل... فلا أحد يستطيع... المختار يكتفي بوضع الختم، دون أن يعرف مضمونها... من المفيد للجميع أن يكون هناك من يجيد التوقيع.

مثل هذا الحرص، من جانب يارمولا، سارق الصيد المعروف، والمتسكع المهمل، والذي لم يخطر ببال الاجتماع القروي أن يأخذ برأيه أبداً - هذا الحرص على المصلحة العامة لقريته، أثر بي لسبب ما. فعرضت عليه بنفسي أن أعلمه. وقد جاءت محاولاتي تعليمه القراءة الواعية والكتابة في غاية الصعوبة. فـ يارمولا، الذي يعرف إلى درجة الكمال، كل رابية في غابته، وكل شجرة تقريباً، والقادر على الاهتداء في أي مكان، ليلاً ونهاراً، والخبير في تمييز آثار كل ذئاب وأرانب وثعالب المنطقة - إن يارمولا هذا لم يستطع أن يتصور كيف أن حرفي «م» و«أ»، مثلاً يشكلان معاً «ما». عادة ما كان يقضي دقائق عشراً أو أكثر، من العذاب في التفكر بهذه المسألة، ووجهه الأسمر النحيل، بعينيه السوداوين الغائرتين، المغطى بكامله بلحية سوداء خشنة وشارب كبير، يعبر عن أعلى درجات التوتر الذهني، وألححت عليه:

- هيا يا يارمولا، قل «ما». ما عليك إلا أن تقول «ما». لا تنظر إلى الورقة، انظر إلي، على هذا النحو - هيا قل «ما»...

---

(١) يقصد ورقة. [المترجم].

حينها يتنهد يارمولا بعمق، ويضع الدلالة على الطاولة، ثم يقول بحزن وحزم:

- كلا... لا أستطيع...

- كيف لا تستطيع؟ هذا سهل جداً. بكل بساطة، قل «ما»، كما أقول أنا.

- كلا... لا أستطيع يا بانيتش... لقد نسيت.

كل الطرق والأساليب والمقارنات كانت تتحطم على هذا الجهل المطبق. بيد أن طموح يارمولا إلى التعلم لم يضعف، فكان يتوسل إلي بحياء:

- فقط لو أستطيع كتابة اسم عائلتي. ولست بحاجة إلى أي شيء آخر. اسم عائلتي فقط: يارمولا بابروجوك - ولا شيء آخر.

تخليت نهائياً عن فكرة تعليمه القراءة والكتابة، بشكل عقلاني، وانكببت على تعليمه التوقيع بشكل آلي. ومما أثار دهشتي، إلى حد كبير أنني تبينت أن هذا الأسلوب هو الأنسب ليارمولا، وهكذا، فمع نهاية الشهر الثاني أوشكنا على التغلب على اسم العائلة. أما فيما يتعلق باسمه الشخصي، فقد اتفقنا على التخلي عنه، بقصد تسهيل المسألة.

وفي السهرة، وبعد الانتهاء من إضرام النار في الموقد، كان يارمولا ينتظر مناداتي له، بفارغ الصبر. وحين أقول له:

- هيا يا يارمولا، تعالَ للدرس.

كان يدنو من الطاولة جنباً، ويستند عليها بذراعيه، ويدسُّ الريشة بين أصابعه الخشنة، غير القابلة للثني، ويسألني، بعد أن يرفع حاجبيه عالياً:

- هل أكتب؟

- اكتب.

بكل ثقةٍ رسمَ يارمولا الحرف الأول «Π» (كنا نطلق على هذا الحرف اسم «قائمان، تعلوهما عارضة»)، بعد ذلك راح ينظر إليَّ متسائلاً.

- ما بالك لا تتابع الكتابة؟ هل نسيت؟

ويهز يارمولا رأسه بأسىً:

- نسيت...

- آه منك. طيّب ارسم العجلة.

- آ. العجلة، العجلة... أعرف... - انتعشَ يارمولا، وشرع يرسم على الورقة شكلاً ممطوطاً نحو الأعلى، شبيهاً إلى حدٍّ كبير بشكل بحر قزوين. بعد إنجاز هذا العمل، أمضى بعض الوقت يتأمله بإعجاب، وهو يميل برأسه تارة إلى اليمين، وأخرى إلى الشمال، ويزر عينيه.

- لماذا توقفت؟ تابع الكتابة.

- انتظر قليلاً يا بانيتش... حالاً.

أمضى قرابة الدقيقتين في التفكير، ثم سأل بوجل:

- مثل الحرف الأول؟

- صح. اكتب.

وريداً رويداً وصلنا إلى الحرف الأخير - «K» (كاف)، الذي كنا نعتبره «عصا في وسطها انحناء، بذيل مائل».

أحياناً كان يارمولا يسألني. بعد الانتهاء من عمله، وتفحصه بفخر واعتزاز: ما رأيك يا بانيتش، إذا ما درستُ خمسة أو ستة أشهر أخرى، إذن لأتقنت الكتابة. ما رأيك؟

-٢-

جلس يارمولا القرفصاء عند الموقد، وراح يحرك الفحم في داخله، أما أنا فرحت أذرع غرفتي جيئة وذهاباً. يضمُّ البيتُ الإقطاعيُّ الكبيرُ اثنتي عشرةَ غرفةً، لم أشغل منها سوى غرفة واحدة - الصالون. أما الغرف الباقية فظلت موصده، يدب العفن في أثاثها الشتوفي[1] العريق، والبرونزيات المدهشة، ولوحات القرن الثامن عشر.

خلف جدران البيت كانت الريح تزمجر، كما الشيطان العجوز العاري، المتجمد من البرد. وفي زمجرته يتردد الأنين والزعيق والضحك. ومع حلول المساء، ازدادت العاصفة الثلجية قوة. ومن الخارج راح أحدهم يقذف حفناتِ الثلج الدقيق الناشف على زجاج النوافذ. وكانت الغابة القريبة تهدر وتصفر، بتهديد مبهم لا ينقطع...

تغلغلت الريح إلى الغرف الخاوية وإلى أنابيب المدافئ، فراحت تعوي، وفجأة دبَّت الحياة في البيت الهرم، المتزعزع المثقب، شبه المتهدّم، بالأصوات الغريبة، التي رحت أصغي إليها بخوف لا إرادي، فها قد تنهد شيءٌ ما في الصالة البيضاء، تنَّهد بعمق، بتقطُّع وحزن، وفي البعيد تحركت وَصَرَّتْ الأرضيات المتعفنة الجافة، تحت وقع خطًا ثقيلة وخرساء. ومن ثَم خُيّل إليَّ أنَّ أحدَهم يضغط بحذر وإصرار على قبضة الباب، في البهو، بالقرب من غرفتي، وبعد ذلك يحتدم غيظاً فجأة، ويندفع عبر البيت كله، وهو لا يكف عن رج درف النوافذ والأبواب، أو يتسلل إلى الأنبوب، ويطلق هريراً شاكياً مملاً، ومستمراً، تارة يرفع صوته عالياً، بشكل أكثر حدة، إلى درجة الولولة الحزينة،

---

(١) من كلمة stoff الألمانية، وتعني النسيج الحريري، أو الصوفي الثقيل. [المترجم].

وتارةً يقوم بخفضه إلى الأسفل، إلى درجة زئير الوحوش. وبين الفينة والأخرى يقتحم هذا الضيف المخيف غرفتي، الله وحده يعلم من أين، وتسري برودةٌ مباغتةٌ على ظهري، فيتراقص لهب الشمعة، الذي يضيء إضاءة خافتة، تحت الغطاء الورقي الأخضر، المحترق من الأعلى.

شعرت بقلق غريب، غامض، ورحت أفكر كيف أجلس في هذه الليلة الشتوية الظلماء، المكفهرة، وسط قرية ضائعة بين الغابات والكثبان، على بعد مئات الفراسخ عن حياة المدنية، عن المجتمع، عن ضحك النساء، عن الحديث البشري... وبدأت أتصور أن هذه الأمسية المكفهَّرة سوف تتطاول سنوات، بل عشرات السنين، حتى مماتي، وسوف تستمر زمجرة الريح، خلف النوافذ، وسوف يشتعل المصباح بضوء خافت، تحت الغطاء الأخضر الرثّ، وأبقى أذرع غرفتي جيئة وذهاباً، وأنا نَهَبٌ للخوف، وسيبقى جالساً لدى الموقد يارمولا الصامت، المركز التفكير - هذا الكائن العجيب، الغريب عني، اللامبالي بأي شيء في الدنيا: لا بأسرته التي لا تجدُ ما تَسُدُّ به الرمق، ولا بزمجرة الريح، ولا بمللي الغامض، الذي لا يرحم.

فجأة شعرت برغبة عارمة في قطع حبل الصمت المضني، فسألت، بما يشبه الصوت البشري:

- من أين هذه الريح اليوم برأيك، يا يارمولا؟

ورد يارمولا، وهو يرفع رأسه بكسل:

- الريح؟ ألا يعرف بانيتش؟

- لا أعرف، بالطبع. ومن أين لي أن أعرف؟

انتعش يارمولا فجأة:

- أحقاً أنك لا تعرف؟ - ثم أضاف بتغاير غامض في صوته - سأقول لك: إنها المشعوذة، المشعوذة تمرح.

- هل تعني بالمشعوذة الساحرة؟

- بلى، بلى... الساحرة.

انقضضت على يارمولا بنهَم. «من يدري - خطر لي - ربما أتمكن الآن من الحصول منه على حكاية شيقة، ذات علاقة بالسحر، بالكنوز المدفونة، والبشر - الذئاب؟».

فسألته:

- وهل لديكم ساحرات هنا، في بوليسي؟

- لا أعرف... ربما يوجد - رد يارمولا باللامبالاة السابقة، ومن جديد انحنى على الموقد - الناس القدامى يقولون: إنهنّ كُنَّ موجوداتٍ في وقت من الأوقات... وربما هذا غير صحيح...

خاب أملي على الفور. تكمن السمة المميزة ليارمولا في ميله العنيد إلى قلة الكلام، ولم يعد الأمل يحدوني في الحصول منه على شيء أكثر، بخصوص هذا الموضوع، الذي يهمني. وكم كانت دهشتي كبيرة، حين شرع يتحدث بإهمال كسول، وكأنَّه لا يوجِّه كلامه إليَّ، بل إلى الموقد الهادر:

- لخمس سنوات خلت عاشت لدينا ساحرة كهذه... لكنَّ الشبابَ طردوها من القرية.

- إلى أين طردوها؟

- إلى أين... إلى الغابة طبعاً... وإلى أين يمكن أن تطردها؟ وهدموا كوخها، كي لا يبقى من ذلك الجحر اللعين شطفة واحدة... أما هي فساقوها خارج القرية، ثم طردوها بخشونة.

- ولماذا تصرفوا معها على هذا النحو؟

- لقد جرّت كثيراً من الويلات. تخاصمت مع الجميع، وقد سكبت العقاقير تحت الأكواخ. وفي ذات مرة طلبت من إحدى الصبايا زلوطاً (خمسة عشر كوبيكاً)، لكن هذه قالت لها «دعيني وشأني، فليس لدي زلوط». فقالت الساحرة «طيب، سوف تذكرين كيفَ رفضتِ إعطائي زلوطاً...» وماذا تعتقد يا بانيتش. منذ ذلك الحين أصيب طفل الصبية بالمرض، واستمر مرضه إلى أن مات تماماً. وعندها طرد الشباب الساحرة. ليتها تصاب بالعمى...

وتابعت فضولي:

- وأين هي الآن، هذه الساحرة؟

- الساحرة؟ - أعاد يارمولا السؤال ببطء، على عادته - وهل أعرف؟

- ألم يبق لديها أقارب في القرية؟

- كلا، لم يبق. فهي غريبة، من الكاتساب، من الغجر... كنت لا أزال صغيراً، حين جاءت إلى قريتنا، ومعها فتاة صغيرة: ابنتها، أو حفيدتها... طردوهما كلتيهما...

- والآن ألا يذهب إليها أحد. لكشف الطالع، أو لطلب عقار ما؟

وردَّ يارمولا باحتقار:

- النسوان يذهبن.

- آ. إذن، فليس مكان إقامتها مجهولاً؟

- لا أعلم... يقول الناس إنها تعيش بالقرب من بيسوف كوت... إنه المستنقع خلف شلياخ[1] إيرينا. إنها تعيش في هذا المستنقع، قبحها الله.

«الساحرة تعيش على بعد عشرةِ فراسخ عن بيتي لا أكثر... ساحرة بوليسية حقيقية، من لحم ودم» - هذه الفكرة استحوذت على اهتمامي فوراً، وأثارتني.

وخاطبت البوليسي بقولي:

- اسمع يا يارمولا، كيف أستطيع التعرف إليها، إلى هذه الساحرة؟

- تفوه - بصق يارمولا بتقزز - يا لها من نعمة.

- نعمة أم نقمة، ومع هذا فسوف أذهب إليها. ما إن يحل الدفء قليلاً، حتى أتوجه إليها. سوف ترافقني بالطبع؟

أدهشت كلماتي الأخيرة يارمولا إلى درجة أنَه هبَّ على قدميه، وصاح ساخطاً:

- أنا؟ لن أذهب أبداً، يشهد الله أنني لن أذهب.

- يا لها من حماقات، سوف تذهب.

- كلا يا بانيتشو، لن أذهب... لن أذهب أبداً... أنا أذهب؟ - صاح مرةً أخرى، وقد اعتراه دفق جديد من الاستياء - أنا أذهبُ إلى كوخ الساحرة؟ أعوذ بالله، ولا أنصحك بذلك يا بانيتش.

---

(1) كلمة بولونية تعني السكة المطروقة. [المترجم].

- كما تريد... أما أنا فسأذهب، مع ذلك أشعر بفضول كبير للنظر إليها.

ودمدم يارمولا، وهو يغلق باب الموقد بغضب:

- لا شيء هناك، يستحق إشباع الفضول.

وبعد نحو ساعة، وكان قد رفع السماور، وشبع من شرب الشاي في المدخل المظلم، وهمَّ بالذهاب إلى البيت. سألته:

- ما اسم هذه الساحرة؟

فرد يارمولا بتجهُّمٍ فظّ:

- مانوليخا.

على الرغم من أنه لم يعبر مطلقاً عن مشاعره، فإنه، على ما أظن، كان متعلقاً بي بقوة، إنه متعلق بي بسبب ولعنا المشترك بالصيد، بسبب معاملتي البسيطة، وبسبب المعونة التي أقدمها بين الفينة والأخرى لأسرته، الجائعة أبداً، وبشكل خاص لأنني الإنسان الوحيد في العالم، الذي لم يؤنبه على السكر، وهذا ما كان يارمولا لا يطيقه. ولذا فقد جعله تصميمي على التعرّف إلى الساحرة في مزاج سيء جداً، عبر عنه فقط بالمبالغة في التنفس، المقرون بالأزيز، وكذلك برفس كلبه ريابتشيك، في خاصرته، بكل قوة، لدى خروجه إلى مصطبة المدخل. هر ريابتشيك بشدة، وقفز جانباً، لكنه لم يلبث أن جرى في إثر يارمولا، وهو لا يكف عن الهرير.

-٣-

بعد ثلاثة أيام أصبح الجو دافئاً. وذات صباح، في وقت مبكر جداً، دخل يارمولا غرفتي، وأعلن بقلة اكتراث:

- ينبغي تنظيف البندقية، يا بانيتش.

وسألت، وأنا أتمطى، تحت البطانية:

- وماذا حدث؟

- لم يهدأ الأرنب عن الحركة ليلاً: الآثار كثيرة. ربما نذهب إلى بانوفكا؟

رأيت أن يارمولا يهفو بكل كيانه للذهاب إلى الغابة، بأسرع وقت، لكنُّه يُخفي رغبةَ الصَّياد العارمة هذه بتصنُّع اللامبالاة. وبالفعل ففي المدخل بدت بندقيته، وحيدة السبطانة، التي لم ينج منها طائر بكاشين واحد، على الرغم من أنها مزدانة قرب الفوهة بعدة رقعات قصديريه، تُغطِّي الأماكن، التي تآكل فيها الحديد، بفعل الصدأ، ودخان البارود.

لم نكد ندخل الغابة، حتى وقعنا على أثر الأرنب: قائمتان متجاورتان، وأخريان إلى الخلف، واحدة إثر أخرى. خرج الأرنب إلى الطريق، وسار عليه قرابة المئتي ساجين[1]، ثم قفز عن الطريق، إلى غابة الصنوبر الفتية.

وقال يارمولا:

- والآن سوف نلتف من حوله، لابد أنه راقد في المكان، الذي قفز إليه. اذهب أنت يا بانيتش... - وراح يفكر بأي طريق يرسلني، اعتماداً على العلامات، التي لا يعرفها إلا هو... - اذهب حتى الحانة القديمة، بينما

---

(١) الساجين: وحدة طول روسية، تعادل ١٣ , ١م. [المترجم].

سألتفُّ أنا حوله، من ناحية زاملين. وحال طرد الكلب له، سوف أصرخ لك.

واختفى على الفور، لكأنه غاب في أجمة الشجيرات الكثيفة. ورحت أصغي. لكن أي صوت لم يفضح مشيته، كسارق الصيد، ولم يطقطق أي غصن تحت قدميه، اللتين تنتعلان حذاء من الألياف اللبية.

سرت على مهل إلى أن وصلت الحانة القديمة، وهي عبارة عن كوخ مهجور، متداع. . وقفت عند طرف غابة الصنوبريات، تحت صنوبرة عالية، ذات جذع عارٍ مستقيم.

كان الهدوء مخيماً، كما يحدث في الغابة شتاءً في نهار هادئ. وكانت كتل الثلج المنفوشة، المعلقة على الأغصان، تضغطها نحو الأسفل، فتعطيها شكلاً احتفالياً رائعاً بارداً. وبين الفينة والأخرى يسقط من القمة غصن رفيع، فتسمع بكل وضوح الطقطقة الخفية لملامسته الأغصان الأخرى، لدى سقوطه. والثلج يتورد في الشمس، ويزرق في الظل. سحرني هذا السكون البارد المهيب، وخُيِّل إليّ أنّني أحس بالزمن يمر بي ببطء، وبدون صوت...

فجأة تردد نباح ريابتشيك في البعيد، وسط الغابة. إنه النباح المميز للكلب، السائر في أعقاب الطريدة: نباحٌ رفيع، رنان، وعصبي، يكاد يتحول إلى هرير. وفي اللحظة نفسها، سمعت صوت يارمولا، يصرخ بقسوة، في أعقاب الكلب «أو - بي! أو - بي» المقطع الأول، بصوت ناشز حاد وممطوط، والثاني بصوت باص متقطع (فقط بعد مرور زمن طويل، اكتشفت أن صيحة الصيد البوليسفية مشتقة من فعل الأمر «أوبيغات»[1]).

---

(١) أوبيغات: اقتل. [المترجم].

وبدا لي من اتجاه النباح أنَّ الكلب يطارد الأرنب على يساري، فجريت بسرعة، عبر الرابية، لكي أعترض الحيوان. لكنني لم أكد أخطو عشرين خطوة، حتى قفز الأرنب الأسمر الضخم من خلف الجذأة، طاوياً أذنيه إلى الخلف، وكأنه ليس على عجلة من أمره. وبوثبات عالية متباعدة، جرى عبر الطريق، ثم اختفى في الغابة الفتية. وطار ريابتشيك في إثره باندفاع. وحين رآني، لوح بذيله قليلاً، ثم لامس الثلج عدة مرات بأسنانه، ومن جديد عاد يطارد الأرنب.

وفجأة خرج يارمولا من الغابة، دون صوت أيضاً وصاح بي، ثم تمطق بلسانه لائماً:

- ما بالك لم تعترض طريقه يا بانيتش؟

- لكن المسافة بعيدة... أكثر من مئتي خطوة.

ولان يارمولا، حين رأى ارتباكي:

- طيب، لا بأس... لن ينجو منا. اذهب إلى طريق إيرينا، فهو لن يلبث أن يخرج إلى هناك.

سرت باتجاه طريق إيرينا، ولم تمض دقيقتان، حتى سمعت الكلب ينبح في مكان غير بعيد عني. جريت، وقد تملكني تهيج الصيد، حاملاً البندقية، مائلة إلى الأسفل، عبر الأجمة الكثيفة، مكسراً الأغصان، ودون أن أبالي بصدماتها القاسية. جريت على هذا النحو فترة طويلة، ورحت ألهث، وحين توقف نباح الكلب فجأة، بدأت أسير على مهل، وقد بدا لي أنني، إذا ما تابعت السير إلى الأمام، فسألتقي من كل بد بيارمولا على طريق إيرينا. لكنني لم ألبث أن اقتنعت أنني ضللت أثناء جريي، وأنا ألتف حول الأجمات والجذاء، دون التفكير بالطريق بتاتاً، حينها رحت أنادي يارمولا، لكنه لم يرد.

بينما تابعت السير بشكل آلي راحت كثافة الغابة تقل تدريجياً، وأصبحت التربة رخوة، كثيرة النتوءات. وبسرعة أخذت الآثار التي تطبعها قدماي على الثلج تصبح قاتمة، وتمتلئ بالماء. أكثر من مرة غصت حتى ركبتي. ووجدت نفسي مضطراً للقفز من نتوء إلى نتوء، وكانت رجلاي تغوصان في الطحلب الأسمر الكثيف، الذي يغطيها، كما في السجادة الوثيرة.

لم تلبث الأجمة أن انتهت، ووجدت نفسي أمام مستنقع مستدير كبير، مغطى بالثلج. ومن تحت البساط الأبيض تبرز نتوءات نادرة. على الجهة المقابلة من المستنقع، وبين الأشجار، لاحت جدران بيضاء لأحد البيوت. وقلت لنفسي «على الأرجح أن حارس غابة إيرينا يعيش هنا. ينبغي أن أعرج عليه، وأستدل منه على الطريق».

لكن الوصول إلى البيت لم يكن بهذه السهولة. ففي كل دقيقة كنت أغوص في المستنقع. امتلأت جزمتي بالماء، وراحت تبقبق بصوت عال، لدى كل خطوة، وازداد شعوري بالعجز عن جرها خلفي.

أخيراً تمكنت من اجتياز هذا المستنقع، تسلقت تلة صغيرة، والآن أصبح بوسعي تفحص البيت جيداً. لم يكن ذلك بيتاً، بل كوخاً، يقف على ساقي دجاجة، كما في الحكايات[1]. لم يكن يلامس الأرض بأرضيته، بل بني على الأوتاد، على الأرجح درءاً للفيضان، الذي يغمر غابة إيرينا كلها ربيعاً. لكن أحد جانبيه هبط بفعل الزمن، وهذا ما أعطى الكوخ شكلاً أعرج كئيباً. ولما كانت بعض ألواح الزجاج تنقص في النوافذ، فقد استعيض عنها بالثياب العتيقة القذرة، التي تبرز حدباء إلى الخارج. ضغطت على المرتاج، وفتحت

(١) في الحكاية الروسية تعيش الساحرات في أكواخ من هذا النوع. [المترجم].

الباب. كان الظلام دامساً في البيت، ولما كنت قد أمضيت فترة طويلة أنظر إلى الثلج، فقد راحت الدوائر البنفسجية تتراقص أمام عيني، ولفترة طويلة بقيت غير قادر على معرفة ما إذا كان في البيت أحد.

وسألت بصوت عال:

- أيها الناس الطيبون، من منكم في البيت؟. وتحرك شيء ما، قرب الموقد. وحين دنوت أكثر ميزت عجوزاً، تجلس على الأرض، وأمامها كومة هائلة من ريش الدجاج. كانت العجوز تأخذ كل ريشة على حدة، وبعد أن تنتزع نصلها، تضع الزغب في سلة، أما المحاور فترميها على الأرض مباشرة.

ولم أكد أتمعن في العجوز ملياً، حتى برقت في رأسي: «إنها مانوليخا، كل ملامح بابا - ياغا، التي تطالعنا في الملحمة الشعبية، تجلت أمامي: الخدان النحيلان، الغائران، يتحولان في الأسفل إلى ذقن حادة، طويلة مترهلة، تكاد تلامس الأنف، المعلق نحو الأسفل، والفم الأدرد الغائر، لا يكف عن الحركة، كأنه يمضغ شيئاً، والعينان الباهتتان، اللتان سبق أن كانتا زرقاوين، باردتان، مستديرتان وجاحظتان، يغطيهما حاجبان قصيران جداً، وهما تنظران كما عيني الطائر الجارح، الذي لا نظير له».

وقلت بصوت بشوش، قدر الإمكان:

- مرحباً يا جدتي! أليس اسمك مانوليخا؟

ورداً على سؤالي، غرغر شيء ما، وشخر، في بطن العجوز، بعد ذلك انطلقت من فمها، الأدرد المتمتم، أصوات غريبة، تارة تشبه نعيق احتضار الغراب الهرم، وتارةً تتحول إلى ناسور أبح، متقطع:

- ربما في الماضي كان الناس الطيبون يسمونني مانوليخا... أما الآن فيسمونني قطة، ويلقبونني بالقطة. وأنت ما حاجتك؟ - سألت بعداوة، دون أن تتوقف عن عملها الرتيب.

- الواقع أنني ضللت طريقي يا جدتي، ربما يوجد لديك بعض الحليب؟

وردت بخشونة وغضب:

- ليس ثمة حليب. كثيرون من أمثالك يجوبون الغابة... لا يمكن أن تطعم الجميع، وتسقيهم.

- إيه يا جدتي. لست لطيفة مع الضيوف.

- هذا صحيح يا باتوشكا...، لست لطيفة مع الضيوف. ليس لدينا مضافة للجميع. إن كنت تعباً، اجلس قليلاً، فلا أحد يطردك من البيت. ألا تعرف المثل القائل: «تعال إلينا، واجلس على مصطبتنا، واستمع إلى رنين الأجراس في عيدنا، أما نحن فسنأتي لتناول الغداء عندك». هكذا إذن...

هذه العبارات أقنعتني على الفور أن العجوز غريبة فعلاً عن هذه المنطقة، فهنا لا يحبون، ولا يفهمون الكلام اللاذع، المنمق بالمفردات النادرة، الذي يقبل الشماليون - المهذارون على استخدامه بكل طيبة خاطر. وبينما تابعت العجوز عملها بشكل آلي، ظلت تهمهم بشيء ما، من أنفها. لكن بشكل غير مسموع، وغير مفهوم. وكل ما ميزته عدة كلمات، لا رابط بينها: «هاك الجدة مانوليخا... ومن يكون - غير معروف... إن سنوات عمري ليست بالقليلة... يحرك ساقيه، يسقسق، ويصيح، كما طائر العقعق...».

أمضيت بعض الوقت، وأنا أصيخ السمع صامتاً، لكن فكرة مفاجئة، أن أمامي امرأة مجنونة، أثارت لدي الشعور بالخوف والقرف.

وألقيت نظرة على ما حولي. القسم الأكبر من البيت يحتله الموقد الهائل المتقشر. وليس ثمة صور للقديسين في الركن الأمامي. وبدلاً من الصيادين، ذوي الشوارب الخضراء والكلاب البنفسجية، وصور الجنرالات المجهولين، علّقَت على الجدران حزماً صغيرة من الأعشاب المجففة، والجذور المتجعدة، وأواني المطبخ. لم أرَ طائر البوم، ولا القط الأسود، لكنني رأيت زرزورين أرقطين كبيرين يحدقان بي من فوق الموقد، بدهشة وعدم ثقة.

وسألتها، رافعاً صوتي:

- وهل لديك ماء، على الأقل، يا جدتي؟

وقالت، وهي تشير برأسها:

- إنه هناك، في البرميل.

كان للماء طعم الصدأ المستنقعي. وبعد أن شكرت العجوز (وهذا ما لم توله أي اهتمام)، سألتها كيف لي بالخروج إلى الطريق العامّة.

رفعت رأسها فجأة، ونظرت إلي نظرة ثاقبة بعينيها الباردتين، كعيني الطائر، وتمتمت على عجل:

- اذهب، اذهب... اذهب يا شاطر في طريقك. ليس لك ما تفعله هنا. الضيف الجيد من لا يطيل البقاء... اذهب يا باتوشكا[1]، اذهب...

---

(١) يا باتوشكا: يا أبتاه. [المترجم].

وبالفعل لم يبق لدي ما أفعله إلا الانصراف. لكن خطر لي فجأة أن أجرب الوسيلة الأخيرة، كي أجعل العجوز القاسية تلين قليلاً. أخرجت من جيبي تشيتفرتاك[1] فضياً جديداً، ومددته لمانوليخا. لقد أصبْتُ، فحينما رأت النقود، دبت الحركة في العجوز، واتسعت عيناها أكثر، ومدت يدها، بأصابعها المعقدة، المرتجفة الملتوية باتجاه قطعة النقد.

فشاكستها، وقلت لها، وأنا أخبئ القطعة النقدية:

- إي. كلا يا جدة مانوليخا، لن أعطيك إياها، دون مقابل. هيا اقرئي لي طالعي.

تلملم وجه الساحرة البني المجعد في تصعيرة استياء. على الأرجح أنها ترددت، وأخذت تنظر بحيرةٍ إلى قبضتي، التي تضغط على قطعة النقود. وكانت الغلبة للجشع.

- حسناً، حسناً. لنذهب، إذن. لنذهب - غمغمت، ونهضت عن الأرض بصعوبة - الآن لم أعد أقرأ الطالع لأحد يا عزيزي... نسيت... لقد أصبحت عجوزاً، عيناي لا تريان. لكن من أجلك فقط.

اقتربت من الطاولة، وهي تستند إلى الجدار، وترتجف في كل خطوة بجسمها المحدودب، وأخذت ورق اللعب، الأسمر الداكن، المنتفخ بفعل الزمن، وخلطته، ثم قربته مني.

- اقطع.. اقطع بيدك اليسرى... من جهة القلب...

شرعت، بعد أن بصقت على أصابعها، ترتب الرقية. كان الورق يسقط على الطاولة، فيسمع صوت سقوطه، كما لو أنه مصنوع من العجين.

---

(١) قطعة نقدية من فئة الربع روبل. [المترجم].

وراح يتوزع، مشكلاً نجمة ثمانية. وحين استقرت الورقة الأخيرة، المقلوبة فوق الملك، مدت مانوليخا يدها نحوي.

- هات النقود أيها السيد الكريم... سوف تصبح سعيداً. سوف تصبح غنياً... - أنشدت بصوت تسولي، غجري بحت.

دسست لها القطعة النقدية الجاهزة، فخبأتها العجوز برشاقة، على طريقة القرود، خلف خدها.

وأسرعت في الكلام المعتاد:

- بانتظارك فرصة كبيرة، بعد سفر طويل. لقاء مع بنت الديناري، وحديث ممتع في بيت مهمّ. عما قريب سوف يصلك خبر مفاجئ من ملك[1] السباتي. سوف تواجه بعض المشاغل، بعد ذلك تحصل على بعض النقود. سوف تجد نفسك وسط شلة كبيرة، وتسكر... ليس كثيراً، لكنك مع هذا سوف تشترك في السكرة. ستعيش حياة طويلة، إن لم تمت في سن السابعة والستين فسو....

على حين غرة توقفت، ورفعت رأسها، كأنها تصيخ السمع لشيء ما. وأنا أيضاً نصبت أذني. ثمة صوت نسائي، ناضر، رنان وقوي يغني، وهو يقترب من البيت. وبدوري تعرفت على كلمات الأغنية الرشيقة من مالاروسيا[2]:

أوي يا له من لون

يثقل على الورود

---

(١) المقصود ختيار السباتي. [المترجم].

(٢) هذه التسمية أطلقت على أوكرانيا منذ أواسط القرن السابع عشر. [المترجم].

أوي يا له من حلم

يدوخ الرأس

اضطربت العجوز، وبدا عليها القلق، وقالت، وهي تبعدني بيدها عن الطاولة:

- هيا اذهب، اذهب الآن يا صقر. لا داعي للتسكع في بيوت الغرباء. اذهب في طريقك...

حتى أنها أمسكت بكُمّ سترتي، وشدتني نحو الباب، وبدا على وجهها الاضطراب الوحشي.

فجأة توقف الصوت عن الغناء، بالقرب من البيت تماماً، ورن المرتاج الحديدي بقوة، وفي فضاء الباب، الذي انفتح على مصراعيه بسرعة، ظهرت صبية، طويلة القامة، ضاحكة، تمسك بكلتا يديها بحذر مئزرها المخطط، الذي تبرز منه ثلاثة رؤوس عصافير، ذات أعناق حمراء وعيون سوداء براقة.

وقالت وهي تضحك، بصوت عال:

- انظري يا جدتي، من جديد تعلقت بي الشراشير. انظري كم هي مضحكة... جائعة تماماً، وكما لو أن الأمر قصداً، لم يكن معي خبز.

لكنها ما إن رأتني، حتى صمتت فجأة، واحمرت خجلاً. تحرك حاجباها الأسودان الرفيعان باستياء، أما عيناها فاتجهتا إلى العجوز، متسائلتين. وأوضحت العجوز:

- لقد عرج السيد... يسأل عن الطريق. - والتفتت إليَّ بمظهر حازم

- هيا يا باتوشكا. كفاك تلكؤاً. لقد ارتويت بالماء، وتحدثت، وحان وقت الانصراف، فنحن لسنا من أقرانك...

وقلت للصبية:

- اسمعي أيتها الحسناء، دليني، من فضلك، على طريق إيرينا، وإلا لن أتمكن من الخروج من مستنقعكم إلى أبد الآبدين.

يبدو أنها تأثرت باللهجة اللطيفة المتوسلة، التي أسبغتها على طلبي، فوضعت بكل حرص شراشيرها على الموقد، إلى جانب الزرزورين، وألقت على المقعد سترتها القصيرة، التي سبق أن خلعتها، ثم خرجت من البيت بصمت.

وسألت الصبية، وأنا أسير في إثرها:

- هل كل هذه العصافير لديك أليفة؟

- أليفة - ردت بشكل مقتضب، حتى أنها لم تنظر إلي، وأضافت، وهي تتوقف لدى السياج المجدول من الأغصان - هاك، انظر، هل ترى الرابية هناك، بين الصنوبرات؟ هل تراها؟

ـ أراها...

- امشِ عليها، وتابع سيرك بخط مستقيم، وحين تصل إلى كتلة البلوط، انعطف إلى اليسار. سر بخط مستقيم، عبر الغابة، سر عبر الغابة، فتصل إلى طريق إيرينا.

في الوقت، الذي مدت فيه يدها اليمنى، مشيرة إلى الطريق، رحت بشكل لا إرادي، أتأملها بإعجاب. ليس ثمة فيها شيء شبيه بالفتيات المحليات، بوجوههن، ذات التعبير النمطي الوجل، كما تبدو تحت العصابات المشوهة، التي تغطي الجبين من الأعلى، والفم والذقن من الأسفل. أما صاحبتي، الشقراء الطويلة، ذات العشرين - الخمسة والعشرين عاماً، فتبدو رشيقة لطيفة. وكان قميصها الأبيض الواسع يحيط بصدرها الفتي القوي

بحرية وجمال. يكفي أن ترى جمال وجهها الأصيل مرة واحدة، حتى يستحيل عليك نسيانه، لكن من الصعب وصفه، حتى ولو ألفته. إن روعته تكمن في هاتين العينين الكبيرتين، الداكنتين والبراقتين، اللتين أعطاهما الحاجبان الدقيقان، المقوسان في الوسط، مسحة ضئيلة من الدهاء والتسلط والبراءة، وفي لون البشرة الوردي - الأسمر، وفي انثناء شفتيها العنيد، حيث تبرز السفلى، وهي الأكثر اكتنازاً، إلى الأمام، بشكل حازم وجامح.

وسألت، بعد أن توقفت لدى السياج:

- هل يعقل أنكما لا تخافان العيش وحيدتين في هذا المكان النائي؟

لكنها هزت كتفيها غير مبالية:

- وممَ نخاف؟ الذئاب لا تأتي إلى هنا.

- وهل الخوف من الذئاب وحدها... يمكن أن يطمركما الثلج، يمكن أن يحدث حريق... وغير ذلك كثير. إنكما هنا وحيدتان، ولن يتمكن أحد من مساعدتكما.

فردت، وهي تلوح بيدها باستخفاف:

- الحمد لله على ذلك - المهم أن يتركونا أنا وجدتي وشأننا، سيكون ذلك أفضل، لكن...

- لكن ماذا؟

فردت بخشونة:

- إن عرفت كثيراً، شخت باكراً. - ثم سألت بقلق:

- وأنت نفسك، من تكون؟

أدركت أن العجوز وهذه الحسناء تخافان، على الأرجح، من مضايقات «المسؤولين»، فسارعت إلى طمأنتها:

- أوي، لا تقلقي أرجوك، فلست شرطياً ولا كاتباً في دائرة، ولا جابي ضرائب، باختصار ليست لدي أي سلطة.

- هل أنت صادق في كلامك؟

- كلمة شرف. والله العظيم أنا إنسان عادي جداً. لقد حللت هنا ضيفاً، لعدة أشهر، ثم أرحل بعدها. حتى أنني، إن أردت، لن أخبر أحداً عن قدومي إلى هنا، ورؤيتي لكما. هل تصدقينني؟

أشرق وجه الفتاة قليلاً.

- إذاً هذا يعني، أنك تقول الصدق، ما دمت لا تكذب. والآن قل لي: هل سبق لك أن سمعت عنا، أم أنك عرجت عن غير قصد؟

- الواقع أنا نفسي لا أعرف ماذا أقول لك... صحيح أنني سمعت عنكما، حتى إنني أردت أن أعرج عليكما، أما اليوم فقد جئت من باب المصادفة... ضللت. حسناً، والآن قولي لي لماذا تخافان الناس؟ أي ضرر يلحقونه بكما؟

حدجتني بنظرة شك فاحصة. ولما كان ضميري نقياً، وتحملت هذه النظرة الثاقبة، دون أن يرف لي جفن، فقد راحت تتحدث باضطراب متزايد:

- إننا نقاسي منهم الأمرَّين... بالنسبة إلى بسطاء الناس، الأمور لابأس، أما بالنسبة إلى المسؤولين... يأتيك الشرطي، ويسلبك شيئاً ما، ويأتيك مسؤول آخر، ويسلبك بدوره. وقبل السلب، يوجهون الإهانات لجدتي، فيصفونها بالساحرة، بالشيطانة، والمحكومة بالأشغال الشاقة... إيه، ما جدوى الكلام.

- وأنت، ألا يمسونك؟ - أفلت مني هذا السؤال، غير الحصيف.

حركت رأسها من الأسفل إلى الأعلى، بثقة بالنفس أبية، وبرق في عينيها، المتضيقتين الظفر الغاضب...

- لا يمسونني... ذات مرة تحرش بي أحد مساحي الأرض... أراد ملاطفتي... ولا شك أنه حتى الآن لم ينس كيف لاطفته.

في هذه الكلمات الساخرة، والأبية بامتياز، تردد كثيرٌ من الاستقلالية الخشنة، إلى درجة أنه خطر لي بشكل لا إرادي: «ليس عبثاً أنك ترعرعت وسط غابات بوليسية - إن المزاح معك محفوف بالخطر فعلاً».

وتابعت، وهي تزداد ثقة بي:

- وهل نضايق أحداً، ثم إننا لسنا بحاجة إلى الناس. مرة واحدة في العام أذهب إلى البلدة لشراء الصابون والملح... بالإضافة إلى الشاي لجدتي، فهي تحب الشاي. وإن شئت، فليتنا لا نرى أحداً بتاتاً.

- أرى أَنكِ وجدَّتَك لا ترحّبان بالضيوف... وهل بوسعي أنا، أن أعرج يوماً ما لدقيقة؟

فضحكت. والغريب أن وجهها الجميل تغير فجأة، لم يبق فيه أثر للصرامة السابقة: فجأة أصبح مشرقاً، خجلاً وطفلياً.

- وماذا تفعل لدينا؟ فنحن، أنا وجدتي، مملتان... ليكن، عرج علينا إذن، إن كنت إنساناً صالحاً حقاً. لكن بشرط واحد... إذا ما جئتنا يوماً، فالأفضل أن تأتي دون بندقية.

ـ هل تخافين؟

- وممم أخاف؟ لست أخاف أبداً - ومن جديد ترددت في صوتها الثقة بالنفس - كل ما في الأمر أنني لا أحب هذا. ما الداعي لقتل العصافير، والأرانب أيضاً؟ إنها لا تسيء إلى أحد، وتريد أن تعيش، على غرارنا نحن أيضاً. إنني أحبها: فهي صغيرة، غبية... والآن إلى اللقاء - قالت على عجل - لا أعرف كيف أناديك باسمك... أخشى أن توبخني جدتي.

وجرت بخفة وسرعة نحو البيت، خافضة رأسها، وقد أسندت بيديها شعرها، الذي بعثرته الريح، وصحت بها:

- مهلاً، مهلاً. ما اسمك. فلنتعارف كما ينبغي.

توقفت للحظة، والتفتت نحوي:

- اسمي ألينا... ومعناه هنا أوليسا.

ألقيت البندقية على كتفي، وسرت في الاتجاه المحدد، وبعد أن ارتقيت تلة صغيرة، حيث يبدأ درب حرجي ضيق، لا يكادُ يلحظ، التفت. كانت تنورة أوليسا الحمراء، التي حركتها الريح قليلاً، لا تزال ترى على مصطبة مدخل البيت، بقعة فاقعة، على خلفية الثلج المستوية، البيضاء بشكل ساطع.

بعد ساعة من عودتي إلى البيت، وصل يارمولا. وعلى عادته في النفور من الكلام الفارغ، لم ينبس ببنت شفه، فلم يسألني كيف، وأين ضللت الطريق، بل اكتفى بالقول، وكأنما بشكل عابر:

- هناك... لقد وضعت الأرنب في المطبخ... هل سنشويه، أم ستبعثه إلى أحد؟

فقلت له، وأنا أتصور مسبقاً استغراب هذا البوليسي:

- لكنك لا تعرف يا يارمولا، أين كنت اليوم.

فهمهم يارمولا بوقاحة:

- وكيف لا أعرف؟ واضح أنك ذهبت إلى الساحرتين.

- كيف عرفت ذلك؟

- وكيف لا أعرف؟ حين رأيت أنك لا ترد على مناداتي، اقتفيت أثرك... إيه يا بانيتش - ثم أردف بحسرة، مشوبة باللوم والعتاب - ما كان عليك أن تقوم بأعمال من هذا النوع... حرام...

-٤-

حل الربيع في هذا العام مبكراً، بسرعة ـ وكما هي العادة في بوليسية ـ على حين غرة. وعبر دروب القرية جرت الجداول المصطخبة، البنية والبراقة، وهي ترغي وتزبد بغضب، من حول الأحجار، التي تصادفها، وتحرك بسرعة الشطف وزغب الإوز. وفي برك الماء الضخمة انعكست السماء الزرقاء، وما يسبح فيها من غيوم بيضاء مستديرة، كأنها تدوِّم، ومن على الأسطح راحت تتساقط القطرات الرنانة السريعة. وعصافير الدوري، المرشوشة على أشجار الصفصاف، القريبة من الطريق، تزقزق بصوت عالٍ صاخب، إلى درجة أنه لا يمكن سماع شيء، بسبب صياحها. كل شيء يبشر بتململ الحياة البهيج والحثيث.

زال الثلج، مخلفاً وراءه، هنا وهناك، بقعاً قذرةً رخوةً في الوهاد والأجمات الظليلة. ومن تحته أطلت التربة العارية، المبللة والدافئة، التي

ارتاحت بما فيه الكفاية شتاء، وهي الآن مفعمة بالنسغ الطازج، والتوق إلى الأمومة الجديدة. وفوق الحقول السوداء يلتف بخار خفيف، يملأ الجو برائحة الأرض، التي ذاب ثلجها - رائحة الربيع الغضة الجذابة، القوية والمسكرة، التي تميزها، حتى في المدينة، بين مئات الروائح الأخرى. وبدا لي أن هذا الأريج راح ينسكب في روحي، حاملاً الكآبة الربيعية، الحلوة والرقيقة، الطافحة بالآمال القلقة، والهواجس المبهمة - الكآبة الشاعرية، التي تجعل، جميع النساء جميلات في عينيك، والمرفقة دائماً بالتحسر الغامض على الرباع الماضية. أصبحت الليالي أكثر دفئاً، وفي ظلمتها الكثيفة الندية، تشعر بعمل الطبيعة الخلاق، العجول...

في الأيام الربيعية هذه لم تبارح صورة أوليسا رأسي. كان يطيب لي أن أبقى وحدي، وأستلقي مغمض العينين، كي أركز بشكل أفضل. ودون توقف، يستمر خيالي في استحضار وجهها الصارم تارةً، والماكر حيناً، والمشرق بابتسامةٍ لطيفةٍ، تارةً أخرى. وجسمها الفتي، الذي نما في رحابة الغابة العتيقة، بتناسقٍ وقوةٍ، كما تنمو شجيرات الشوح الفتية، وصوتها الغض، بنغماته المخملية المنخفضة والمفاجئة... وفكرت: «في كل حركاتها وكلماتها ثمة شيء ما نبيل (طبعاً بالمعنى الأفضل لهذه الكلمة المبتذلة جداً) واعتدال فطري جميل...». ومما شدني إلى أوليسا أيضاً تلك الهالة، من الغموض، المحيط بها، والسمعة الخرافية للساحرة، والحياة في الغابة، وسط المستنقع، وعلى الأخص - هذه الثقة الأبية بقوتها، التي تجلت في الكلمات القليلة، التي خاطبتني بها.

ليس بغريب أنني، ما إن جفت دروب الغابة قليلاً، حتى توجَّهت إلى الكوخ، القائم على ساقي دجاجة. ومن باب الاحتياط، في حال دعت

الضرورة لاسترضاء العجوز الغضوب، أخذت معي نصف باوند من الشاي وعدة كمشات من قطع السكر.

وجدت المرأتين في البيت. العجوز مشغولة لدى الموقد، المتوهج بشكل ساطع، أما أوليسا فمنكبة على غزل القنب، وهي جالسة فوق مقعد عالٍ جداً، وحين اصطدمت بالباب، لدى دخولي، التفتت، فانقطع الخيط بين يديها، وتدحرج المغزل على الأرض.

لبثت العجوز بعض الوقت تتمعن في باهتمام وغضب، وهي تقطب، وتحجب وجهها براحتها، من وهج الموقد.

وقلت بصوتٍ عالٍ نشيطٍ:

- مرحبا يا ستو! ربما لم تعرفيني؟ ألا تذكرين أنني عرجت عليكم الشهر الماضي، لأستدل على الطريق؟ حتى أنك قرأت لي طالعي؟

وغمغمت العجوز، وهي تهز رأسها باستياء:

- لا أذكر شيئاً يا باتوشكا. لا أذكر شيئاً. وماذا نسيت عندنا، هذا ما لا أفهمه. أي أصحاب نحن بالنسبة إليك؟ فنحن أناس بسطاء، جهلة... لا شيء تفعله عندنا. الغابة كبيرة، والمكان رحب... وإذن...

صعقت لهذا الاستقبال غير الودي، وارتبكت تماماً، ووجدت نفسي في ذلك الوضع الغبي، حين لا تعرف ماذا تفعل؛ هل أقلب هذه الخشونة إلى مزحة، أم أغضب بدوري، أم أعود أدراجي، دون أن أنطق بكلمة. وبشكل لا إرادي، التفت إلى أوليسا، بتعبير ينم عن العجز. افتر ثغرها قليلاً عن ابتسامة، مشوبة بظل من السخرية البريئة، ثم نهضت من خلف المغزل، ودنت من العجوز، وقالت تطيب خاطرها:

- لا تخافي يا جدتي، فهو ليس بالإنسان الشرير، إنه لن يلحق بنا الضرر. مرحباً بك، تفضل - أضافت، وهي تسير إلى مقعد في الركن الأمامي، ولم تعد تهتم بهمهمة العجوز.

شجعني اهتمامها، وقررت استخدام الوسيلة الأنجع:

- كم أنت غضوب يا ستو... ما إن يطأ الضيف العتبة، حتى تطلقي شتائمك. علماً أنني جلبت لك هدية - قلت ذلك، وأنا أخرج صرتيَّ من الحقيبة.

ألقت العجوز نظرة سريعة على الصرتين، لكنَّها التفتت نحو الموقد على الفور.

وقالت، وهي تحرك الجمرات بالمسعر بعنف:

- لست بحاجة إلى أيِّ هدايا منك. نحن نعرف الضيوف أمثالك، في البداية ينسلون إلى روحك، بدون صابون، وفيما بعد... وماذا لديك في الصرة؟ - سألت، وقد التفتت إليَّ فجأة.

ناولتها الشاي والسكر على الفور، مما جعلها تلين، صحيح أنها استمرت في همهمتها، لكن ليس بالنغمة السابقة، غير المهادنة.

مرة أخرى، جلست أوليسا خلف مغزلها، أما أنا فجلست بالقرب منها، على مقعد منخفض، قصير وغير ثابت. راحت أوليسا تفتل بيدها اليسرى بسرعة، مشاقة الكتان، البيضاء الناعمة كالحرير، وفي اليمنى كان المغزل يدور بأزيز خفيف، تارة تتركه يهبط حتى يكاد يلامس الأرض، وأخرى تلتقطه، وبحركة قصيرة من أصابعها، تجعله يبرم من جديد.

وهذا العمل، الذي يبدو، للوهلة الأولى، في غاية البساطة، يتطلب في الواقع قدراً هائلاً من الخبرة والمهارة، إنه يجري بين يديها على قدم وساق. وبشكل لا إرادي استرعت انتباهي يداها: لقد تخشنتا واسودتا بسبب العمل، لكنهما ليستا بالكبيرتين، ولهما شكل جميل، تحسدها عليهما كثيرٌ من الفتيات المتمدنات.

- لك

نك لم تخبرني آنذاك، إن جدتي قرأت لك الطالع - قالت أوليسا، وأردفت، إذ رأتني ألتفت إلى الخلف بوجل: - لا بأس، لا بأس. إن سمعها قليل، لن تسمع. وهي لا تميز بشكل جيد، سوى صوتي.

- بلى لقد قرأته، وماذا في ذلك؟

- لا شيء... مجرد سؤال... وأنت هل تصدق؟

ثم ألقت علي نظرة قصيرة وسريعة.

- ماذا؟ ما قالته لي جدتك، أم إجمالاً؟

- كلا، إجمالاً...

- ماذا أقول، سيكون من الأصح أن أقول إنني لا أصدق، ومع هذا فمن يدري؟ يقال إن بعض المصادفات تحدث... حتى الكتب الجادة تتحدث عن ذلك. أما ما قالته جدتك، فأنا لا أصدقه بتاتاً. إن بوسع أية امرأة ريفية أن تقرأ البخت على هذا النحو.

ابتسمت أوليسا.

- بلى، هذا صحيح، إنها الآن لا تجيد قراءة الطالع. لقد أصبحت عجوزاً، ثم إنها تخاف كثيراً. وماذا قال لك ورق الشدة؟

- لم يقل شيئاً مهماً. لم أعد أذكر الآن. ماذا يقال عادة: أمامك طريق طويل. اهتمام سباتي... حتى إنني نسيت.

- بلى، بلى، لقد أصبحت ساحرة سيئة. كثير من الكلمات نسيتها، بسبب الشيخوخة... أنَّى لها الآن؟ ثم إنها تخاف، لكنها توافق، عندما ترى النقود.

- ومما تخاف؟

- معروف مما - إنها تخاف السلطة... يأتي الشرطي، ويروح يهدد باستمرار: «إن بمقدوري زجك في أي وقت. هل تعرفين عقوبة الساحرات؟ النفي مع الأشغال الشاقة، إلى أجل غير محدد، إلى جزيرة الصقور». ما رأيك. هل يكذب، أم لا؟

- كلا، إنه لا يكذب، هناك عقوبة ما على هذا بالفعل، لكن ليس بهذه الفظاعة... طيب، وأنت يا أوليسا، هل تجيدين قراءة الطالع؟

بدا وكأنها ترددت قليلاً، لكن للحظة واحدة فقط، ثم أضافت على عجل:

- أقرأ الطالع... لكن ليس لقاء النقود.

- ربما ترمين الورق لي أيضاً؟

فردت بصوت خافت، لكنه حازم، وقد هزت رأسها:

- كلا.

- ولماذا لا تريدين؟ طيب، إن لم يكن الآن، ففي وقت آخر، فيما بعد.

- كلا، لن أقوم بذلك، لن أقوم بذلك بأي ثمن.

- لكن هذا غير جيد يا أوليسا. لا يجوز الرفض، كرمى للتعارف الأول... لماذا ترفضين؟

- لأنه سبق لي أن رميت الورق من أجلك، ولا يجوز رميه مرة أخرى.

- لا يجوز؟ وما السبب؟ لست أفهم هذا.

فهمست بوجل متطير:

- كلا، كلا، لا يجوز... لا يجوز، لا يجوز تجريب الحظ مرتين... هذا لا ينفع... فالحظ يعرف، يسترق السمع... الحظ لا يحب أن يسأل. ومن هنا يأتي بؤس جميع الساحرات.

أردت أن أجيب بمزحة ما، ولم أتمكن، فقد كانت كلماتها مفعمة بالاقتناع الصادق، إلى حد أنها، عندما أتت على ذكر الحظ، التفتت بوجل غريب إلى الباب، وبشكل لا إرادي كررتُ هذه الحركة.

ورجوتها:

- حسناً، ما دمت لا تريدين كشف طالعي، فاخبريني بما رأيت آنذاك.

فجأةً ألقت أوليسا بالمغزل، ولامست بيدها يدي، وقالت، وقد اكتسبت عيناها تعبيراً طفلياً متوسلاً:

- لا... من الأفضل أن لا تعرف. لا تطلب ذلك، من فضلك... ما رأيته ليس جيداً... من الأفضل أن لا تطلب...

واستمريت في إصراري. لم أستطع أن أتبين: هل رفضها وتلميحاتها المبهمة عن الحظ هي من حيل الساحرات، أم أنها هي نفسها تصدق فعلاً ما قالته، ولقد شعرت بالضيق، وبما يقرب من الرعب.

أخيراً وافقت أوليسا:

- طيب، سأخبرك. لكن لنتفق، والاتفاق أفضل من النقود، لا تزعل إن قلت ما لا يعجبك. إليك ما رأيت: صحيح أنك إنسان طيب، لكنك ضعيف، وطيبتك ليست جيدة، ليست قلبية. وأنت لست سيد كلمتك. تحب أن تتفوق على الناس، لكنك تخضع لهم، وإن كنت لا تريد ذلك. تحب النبيذ وكذلك... الأمر سيان، سأتحدث، وليكن كل شيء بالترتيب.

إنك مولع جداً بنا، نحن معشر النساء، وهذا ما يجر عليك الكثير من البلايا، في حياتك... لا تقيم للنقود وزناً، ولا تجيد ادخارها... لن تصبح غنياً أبداً... هل أتابع؟

- أجل، أجل، قولي كل ما تعرفين.

- إن ما رأيته أيضاً هو أن حياتك ستكون غير سارة. فلن تحب أحداً بقلبك، لأن قلبك بارد، خامل. وستجر كثيراً من المصائب على أولئك اللواتي سيحببنك. لن تتزوج بأحد، وستموت عازباً. لن تصادف مسرات كبيرة في حياتك، بل ستكون غنية بالملل والضيق... وسيأتي وقت تشعر فيه بالرغبة في وضع حد لحياتك بنفسك... ستصادفك إحدى القضايا... لكنك لا تجرؤ، وتتحمل ذلك. سوف تعاني من ضيق ذات اليد، لكن حظك سيتغير قبيل نهاية حياتك، بعد موت أحد المقربين إليك، وذلك بشكل مفاجئ لك تماماً. لكن ذلك كله سيحدث بعد سنوات كثيرة، أما هذا العام... لست أدري متى بالضبط، الورق يقول إن ذلك سيحدث قريباً جداً... ربما خلال هذا الشهر...

وسألت، عندما توقفت من جديد:

- ما الذي سيحدث هذا العام؟

- الواقع أنني أخاف أن أقول ما سيحدث لاحقاً. سوف تصادف حباً كبيراً، من جانب بنت السباتي، لكنني لا أستطيع أن أميز ما إذا كانت متزوجة، أم عزباء، لكنني أعرف أن شعرها داكن...

بشكل لا إرادي، ألقيت نظرة سريعة على رأس أوليسا.

احمرت عندما أحست بنظراتي، بالفطنة، التي تميز بعض النساء:

- أجل مثل شعري - أردفت، وهي تسوي شعرها، بشكل آلي، وتزداد احمراراً.

وقلت مازحاً:

- تقولين إنه حب سباتي كبير؟

وقالت أوليسا، بلهجة جدية، شبه صارمة:

- لا تضحك، لا داعي للضحك. إنني لا أقول لك إلا الحقيقة.

- طيب، لن أفعل، لن أفعل، وماذا بعد؟

- أوه... يبدو أن ما ستلقاه بنت السباتي أسوأ من الموت. سوف تجلل بسببك بعار كبير، عار لا يمكن أن ينسى مدى الحياة، وتعاني من حزن مديد... أما أنت فلن يصيبك مكروه.

- اسمعي يا أوليسا، ألا يمكن أن يكون الورق قد خدعك؟ لماذا سأسبب هذا الكم من المشاكل لابنة السباتي؟ فأنا إنسان هادئ، متواضع، أما أنت فقد أطنبت في الحديث عن فظائعي.

- هذا ما لا أعرفه. ثم إن ما يظهر لي هو أنك لن تفعل ذلك قصداً، وأن هذه المصيبة لن تقع بسببك... حين ستتحقق كلماتي، عندها سوف تتذكرني.

- كل هذا قاله الورق يا أوليسا؟

لم ترد على الفور، بل بمراوغة، وكأنها لا ترغب في ذلك: - الورق... ثم إنني، حتى بدونه أكتشف الكثير، ولو من خلال الوجه، فعلى سبيل المثال، إذا ما كان شخص ما سيموت عما قريب، بشكل مفجع، فإنني أقرأ ذلك حالاً، في وجهه، حتى إنه لا حاجة بي للحديث معه.

- وما الذي ترينه على وجهه؟

- أنا نفسي لا أعرف. فجأة أشعر بالخوف، كما لو أن ميتاً يقف أمامي. حتى أن بوسعك أن تسأل جدتي، وسوف تقول لك إنني أقول الحقيقة. ففي العام قبل الماضي لقي الطحان تروفيم حتفه خنقاً في مطحنته، وكنت قبل ذلك بيومين، قد رأيت تروفيم. وقلت لجدتي: «انظري يا جدتي إلى تروفيم، إن هي إلا أيام قليلة حتى يموت، بشكل مفجع». وهذا ما حدث. وفي أيام عيد الميلاد الأخيرة عرج علينا ياشكا[1]، لص الخيل، وطلب إلى جدتي أن تقرأ بخته. ألقت جدتي الورق، وشرعت تقرأ طالعه. وقد قال لها مازحاً: «أخبريني يا جدة أية ميتة سأموت؟»، أما هو فراح يضحك. لكنني، ما إن نظرت إليه، حتى وجدت نفسي عاجزة عن الحركة: رأيت ياكوف جالساً، لكن وجهه ميت، أخضر... عيناه مغلقتان والشفتان سوداوان... وبعد أسبوع

---

(١) ياشكا: صيغة التحبب من اسم ياكوف. [المترجم]

سمعنا أنهم أمسكوا بالفلاح ياكوف، وهو يحاول سرقة الخيول... أمضوا الليل كله في ضربه، فالناس هنا أشرار، لا يعرفون الشفقة... لقد دقوا المسامير في كعبيه، وحطموا كل أضلاعه بالأوتاد، ولم يأت الصباح، حتى أسلم الروح.

- ولماذا لم تقولي له إن مصيبة تتربص به؟

واعترضت أوليسا:

- ولماذا أقول له؟ فهل بالإمكان الهرب من المقدور؟ كل ما في الأمر أن الإنسان سيصبح نهباً للقلق عبثاً، في أيامه الأخيرة. أنا نفسي أشعر بالنفور من قدرتي على رؤية هذا، وأشمئز من نفسي... لكن ما العمل؟ فهذا قدري. وجدتي أيضاً كانت تكتشف الموت، وهي شابة، وأمي كذلك، وجدة أمي - هذا لا يتوقف علينا... إنه في دمنا.

توقفت عن الغزل، وهي جالسة، وقد أحنت رأسها قليلاً، ووضعت يديها على ركبتيها، وفي عينيها المتوقفتين، دون حراك، بحدقتيهما المتسعتين، انعكس رعب داكن، ونوع من الخضوع القسري للقوى الغامضة والمعارف الخارقة، التي تلهم روحها.

-٥-

في هذا الوقت فرشت العجوز على الطاولة منديلاً نظيفاً، ذا أطراف مطرزة، ووضعت فوقه قدراً، يتصاعد منه البخار. - تعالي لتناول العشاء يا أوليسا - نادت حفيدتها، وبعد تردد قصير، أردفت، موجهة كلامها إليَّ: - ربما تتناول الطعام معنا يا سيد؟ تفضل... لكن الطعام لدينا متواضع، فنحن لا نطهو الحساء، بل نكتفي بالجريش الحقلي...

لا يمكن القول إنَّ دعوتها تميزت بالإصرار، وقد هممت برفضها، لكن أوليسا رجتني بدورها ببساطة لطيفة، وبابتسامة حنونة، فوافقت على غير إرادة مني. وقد سكبت لي بنفسها صحناً، مملوءاً بالجريش - حساء من الحنطة السوداء، مع الشحم والبصل والبطاطا والدجاج - إنه طعام مغذٍّ ولذيذ، إلى حد كبير. ولدى جلوسهما إلى المائدة، لم ترسم أي منهما إشارة الصليب. وأثناء تناول العشاء، لم أكف عن النظر إلى كلتا المرأتين، لأنني على قناعة عميقة، ما زلت محافظاً عليها، حتى الآن، أن الإنسان لا يبين على حقيقته في أي مكان، كما يبين أثناء تناول الطعام. فالعجوز تبتلع الجريش بنهم عجول، وهي تلوك بصوت مسموع، وتحشر في فمها قطع الخبز الكبيرة، وتحركها خلف خديها الغائرين. أما أوليسا فلديها، حتى في طريقة الأكل، نوع من التأدب الفطري.

بعد مرور ساعة على تناول العشاء، ودعت صاحبتي المزرعة، القائمة على ساقي الدجاج.

وعرضت أوليسا عليَّ:

- هل تود أن أرافقك قليلاً؟

وهمهمت العجوز بسخط:

- ما هذه المرافقة، التي ابتكرت! لا تستطيعين البقاء في مكانك، يا يعسوبه...

بيد أن أوليسا كانت قد ألقت على رأسها المنديل الكشميري، وفجأة اندفعت نحو جدتها، وعانقتها، ثم قبلتها قبلة رنانة.

- جدتي، عزيزتي، حبيبتي، يا ذهبي... لدقيقة فقط، سأعود حالاً.

وراحت العجوز تتملص منها، بوهن:

- طيب، حسناً يا دوارة. وأنت أيها السيد لا تؤاخذني، فهي حمقاء تماماً.

بعد أن اجتزنا الدرب الضيق، خرجنا إلى طريق الغابة، الأسود من الوحل، وقد داسته الحوافر، وخددته المجاري، الطافحة بالمياه، التي ينعكس فيها وهج غسق الغروب. سرنا وجانب الطريق، المغطى بكثافة بأوراق العام المنصرم، الداكنة، التي لم تجف بعد، في أعقاب ذوبان الثلج. وعبر صفرتها الميتة، هنا وهناك، كانت تطل برؤوسها الليلكية أجراس «النوم» الضخمة - الزهرة الأولى في بوليسية.

وبدأت:

- اسمعي يا أوليسا، أود أن أسألك عن بعض الأشياء، لكنني أخاف أن تزعلي... أخبريني هل صحيح ما يقال عن أن جدتك... كيف يمكن أن أعبر عن ذلك؟...

ومدت لي أوليسا يد العون، بكل هدوء:

- ساحرة؟

- كلا... ليس ساحرة - قلت بارتباك - أجل، إن كنت ترغبين، ساحرة... بالطبع، لا ضير في أن يثرثروا. وما المانع من أن تعرف بعض الأعشاب والوسائل والتعاويذ؟... وإجمالاً إن كان هذا يزعجك، فبوسعك ألا تجاوبي.

وردت ببساطة:

- كلا، وما المانع، ما المزعج هنا؟ بلى إنها ساحرة فعلاً، لكنها الآن أصبحت عجوزاً، ولم تعد قادرة على القيام بما كانت تقوم به في الماضي.

وسألتُ بفضول:

- وماذا كانت تجيد في الماضي؟

- أشياء مختلفة. كانت تجيد علاج الأسنان، وترقي من عضة الكلب أو لدغة الأفعى، وتحدد مخابئ الكنوز... يستحيل تعداد ذلك كله.

- هل تعرفين يا أوليسا؟... اعذريني، لكنني لا أصدق هذا كله. كوني صريحة معي، فأنا لن أخونك:

كل هذا مجرد أوهام، فقط بقصد الاحتيال على الناس.

لكنها هزت رأسها بلامبالاة:

- فكر كما يحلو لك. من السهل بالطبع الاحتيال على المرأة الريفية، لكنني ما كنت لأخدعك أنت.

- هذا يعني أنك تؤمنين بالسحر إيماناً راسخاً؟

- وكيف لا أؤمن؟ ففي أسرتنا... ثم إنني أنا نفسي أجيد القيام بالكثير.

- أوليسا، يا يمامتي... لو تعرفين كم هذا طريف بالنسبة إليّ... أمن المعقول أنك لن تريني شيئاً؟

وأبدت استعدادها:

- وما المانع، سأريك، إن كنت تريد. هل ترغب الآن؟

- بلى، إن كان ذلك ممكناً الآن.

- أو لن تخاف؟

- كلام فارغ. ربما كنت سأخاف ليلاً، لكن الضياء لا يزال مخيماً.

- طيب، أعطني يدك.

أطعتها. شمرت أوليسا كم معطفي بسرعة، وفكت زر كم القميص، بعد ذلك أخرجت من جيبها خنجراً صغيراً، بطول يقارب الثلاث فيرشكا[1]، وسحبته من غمده الجلدي.

وسألتُ، وقد شعرت بخوف حقيقي:

- ماذا تريدين أن تفعلي؟

- مهلاً... لكنك قلت إنك لن تخاف.

فجأة قامت يدها بحركة، لا تكاد تلحظ، فشعرت بالملامسة المهيجة للنصل الحاد في لحمة اليد، أعلى بقليل من المكان، الذي يجس به النبض. وعلى الفور انبجس الدم على طول الجرح، وسال على يدي، وراح ينقط على الأرض قطرات متوالية. بالكاد تمالكت نفسي عن الصراخ، لكنني شحبت، على ما أظن.

ابتسمت أوليسا ابتسامة ماكرة:

- لا تخف. ستبقى على قيد الحياة.

احتضنت بيدها بقوة يدي، إلى الأعلى من الجرح، وبعد أن انحنت فوقها بوجهها، راحت تهمس بشيء ما، وهي ترش جلدي بتنفس حار متقطع. وحين استقامت أوليسا، وأرخت أصابعها، لم يبق في مكان الجرح سوى خدش أحمر.

وسألت بابتسامة ماكرة، وهي تخبئ خنجرها:

- ما رأيك؟ هل اكتفيت؟ أتريد أكثر؟

---

(١) فيرشكا: وحدة قياس طولي تعادل ٤ ,٤سم. **[المترجم]**

- أريد بالطبع. وإذا كان بالإمكان ليس بهذا الشكل المخيف، وبدون سفك الدماء، من فضلك.

- ماذا أريك يا ترى؟ واستغرقت في التفكير - طيب، سأريك هذا: امش أمامي على الطريق... لكن إياك أن تلتفت إلى الوراء.

وسألت، محاولاً إخفاء الانتظار الوجل للمفاجأة، غير السارة، بابتسامة لا مبالية:

- ألن يكون هذا مخيفاً؟

- كلا، كلا... شيء تافه... اذهب.

مشيت إلى الأمام، متحمساً جداً للتجربة، وأنا أشعر بنظرة أوليسا المتوترة من خلفي. وفجأة، وبعد أن سرت قرابة الخمسين خطوة، تعثرت في مكان مستو تماماً، وسقطت على وجهي.

وصاحت أوليسا:

- امش، امش. لا تلتفت. هذا أمر بسيط. سوف يلتئم قبل العرس[1]... تمسك بالأرض جيداً، حين ستقع.

تابعت السير. وبعد عشر خطوات تمددت بكل قامتي، للمرة الثانية.

قهقهت أوليسا بصوت عال، وصفقت بكفيها، ثم صاحت، وأسنانها البيضاء تلمع:

- ما رأيك؟ هل أنت راضٍ؟ هل تصدق الآن؟ بسيطة، بسيطة... فأنت لم تطر نحو الأعلى، بل إلى الأسفل.

---

(١) عبارة روسية يقصد بها أن الأمر بسيط، لا يستحق الاهتمام. [المترجم].

- كيف فعلت هذا؟ - سألتها بدهشة، وأنا أنفض ما علق بثيابي من غصينات وأعشاب جافة - ثم أضفت:

- أليس هذا سراً؟

- ليس سراً أبداً. سوف أخبرك، بكل سرور. لكنني أخاف أنك قد لا تفهم... لن أتمكن من إيضاح ذلك...

وبالفعل فإنني لم أفهم ذلك تماماً. لكن، إن لم أخطئ، فإن هذا الملعوب الشاذ يعود إلى أنها، وهي تسير في أعقابي، خطوة خطوة، قدماً لقدم، لا ترفع نظرها عني، وتحاول في الوقت نفسه تقليد أدنى حركة، أقوم بها، أي أنها تطابق نفسها معي. وبعد أن تسير عدة خطوات على هذا النحو، تبدأ تتخيل أن أمامي، وعلى مسافة قريبة، حبلاً ممدوداً، على عرض الطريق، على ارتفاع أرشين[1] عن الأرض. وفي اللحظة، التي ينبغي أن ألامس فيها هذا الحبل الوهمي، تقوم أوليسا فجأة بحركة السقوط، وحينها، كما تقول، فإن أي إنسان، مهما كان قوياً، سوف يقع لا محالة... فقط بعد مرور وقت طويل، تذكرت تفسير أوليسا المشوش، حينما قرأت تقرير الدكتور شاركو[2] حول التجارب، التي أجراها على الساحرتين المحترفتين، المصابتين بالهستيريا. وكم كانت دهشتي كبيرة، حين اكتشفت أن الساحرات الفرنسيات من عامة الشعب، كن يعتمدن في الملاعيب من هذا النوع على الحذاقة نفسها، التي اعتمدتها الساحرة الحسناء البوليسية.

وأعلنت أوليسا بزهو:

---

(١) أرشين: مقياس طولي روسي قديم يعادل ٧٠سم. **[المترجم]**

(٢) شاركو جان مارتان **(١٨٢٥ - ١٨٩٣)** عالم فرنسي، مؤسس علم الأمراض العصبية والطب النفساني. **[المترجم]**

- أوه! هناك الكثير أيضاً مما أتقن القيام به. فبمقدوري، مثلاً، أن أجعل الخوف يدب في نفسك.

- ماذا تعنين؟

- أقوم بما من شأنه أن يجعلك تشعر بالخوف. كأن تكون - مثلاً - جالساً في غرفتك مساء، وعلى حين غرة، ودون سبب، يدب في نفسك الخوف الهائل، إلى حد أنك سترتجف، ولا تجرؤ على الالتفات إلى الخلف. لكن هذا يتطلب أن أعرف أين تعيش، وأن أرى غرفتك مسبقاً.

فقلت مشككاً:

- هذا بسيط جداً، تقتربين من النافذة، تقرعينها، وتصرخين بشيء ما.

- أو، كلا، كلا... سوف أكون حينها في الغابة. ولن أغادر البيت أبداً... سوف أجلس، وأفكر أنني أمشي في الشارع، أدخل بيتك، أفتح الأبواب، أدخل غرفتك... إنك تجلس في مكان ما... ليكن خلف الطاولة... أتسلل إليك، من الخلف بخفة... إنك لا تسمعني... أتشبث بكتفك بيديَّ، وأبدأ خنقك... أقوى، فأقوى، فأقوى... وأنا أنظر إليك... على هذا النحو - انظر...

تحرك حاجباها الدقيقان، وتوقفت عيناها مباشرة عليَّ، بتعبير رهيب وجذاب، أما الحدقتان فقد اتسعتا، وازرقتا. وعلى الفور تذكرت رأس ميدوزا(١)، لم أعد أذكر من هو الفنان، الذي رسمها، في غاليرية تريتياكوف(٢). وتحت هذه النظرة الثاقبة الغريبة، استولى علي رعب بارد مما هو خارق.

---

(١) قنديل بحر خرافي، وهو غول في غاية البشاعة. تقول الأسطورة اليونانية إن كل من ينظر إليه يتحول إلى حجر. **[المترجم]**

(٢) متحف كبير في موسكو غني بلوحاته وآثاره الفنية. **[المترجم]**

فقلت بضحكة متكلفة:

- يكفي، يكفي يا أوليسا... يكفي. إنه ليعجبني أكثر بكثير حينما تبتسمين - حينها يبدو وجهك في غاية الجمال والبراءة.

تابعنا سيرنا. وفجأة تذكرت فصاحة، وحتى أناقة العبارات، بالنسبة لفتاة بسيطة، في حديث أوليسا، فقلت:

- هل تعرفين ما الذي أثار دهشتي فيك يا أوليسا؟ فأنت ترعرعت في الغابة، لا ترين أحداً... ولم يكن بمقدورك القراءة كثيراً بالطبع.

- أجل حتى إِنني لا أجيد القراءة بتاتاً.

- لا سيما... ومع هذا فأنت تتحدثين بشكل جيد، كما يليق بالآنسة الحقيقية. هلا قلت لي، من أين لك هذا؟ هل تدركين عما أسألك؟

- بلى، إنني أدرك. هذا كلُّه بفضل جدتي... لا يغرنك شكلها. لو تعرف، كم هي ذكية. ربما ستبسِط الحديث بحضورك، حينما ستألفك أكثر... إنها تعرف كل شيء، ببساطة كل شيء في الدنيا، كل شيء تسألها عنه. صحيح أنها شاخت الآن.

- هل يعني أنها رأت كثيراً في حياتها؟ من أين أصلها؟ أين عاشت، في الماضي؟

أظن أن هذه الأسئلة لم تعجب أوليسا. فهي لم ترد مباشرة، وجاء ردها مراوغاً وعلى مضض:

- لست أدري... ثم إنها لا تحب الحديث عن هذا. وإذا ما قالت شيئاً، فإنها تطلب دائماً أن ينسى، وأن لا يذكر لاحقاً... لكن آن لي

أن أعود ـ استعجلت أوليسا - سوف تغضب جدتي. إلى اللقاء... أستميحك عذراً، فأنا لا أعرف اسمك.

فأخبرتها.

- إيفان تيموفيفيتش؟ حسناً، هذا ممتاز. إذن إلى اللقاء يا إيفان تيموفيفيتش. لا تشمئز من بيتنا، عرِّج علينا.

ومددت لها يدي مودعاً، فردت علي يدها الصغيرة المتينة بمصافحة ودية قوية.

-٦-

منذ هذا اليوم أصبحت ضيفاً، كثير التردد على الكوخ القائم على ساقي الدجاجة. وفي كل مرة آتي فيها، تستقبلني أوليسا بوقارها، المتحفظ المألوف. لكنني كنت ألاحظ باستمرار، من حركتها الأولى، غير الإرادية، ما إن تراني، أنها مسرورة بقدومي. أما العجوز فظلت على عهدها في الهمهمة، بصوت لا يسمع، غير أنها لم تعبر عن نفورها الصريح، بفضل التوسط، الذي يتم في الخفاء عني، والذي لا ريب فيه، من جانب حفيدتها، هذا بالإضافة إلى التأثير الكبير، لصالحي، بفضل ما أجلب من الهدايا أحياناً: تارة منديلاً دافئاً، وأخرى علبة مربيات، وتارة زجاجة من منقوع الكرز. ولقد أصبح بحكم العادة، وكأنما باتفاق متبادل صامت، بيني وبين أوليسا، أن ترافقني حتى طريق إيرينا، لدى انصرافي إلى البيت، حيث يدور بيننا دائماً حديث في غاية الحيوية والمتعة، لدرجة أننا كلينا كنا نحاول، بشكل لا إرادي، إطالة الطريق، فنسير بأقصى بطء ممكن، عبر الأطراف الحرجية الواجمة. وحين نصل طريق

إيرينا، أرافقها في طريق العودة، لمسافة تقرب من نصف فيرستا، وقبل أن نودع بعضنا، نتحدث أيضاً لفترة طويلة، ونحن واقفان، تحت مظلة أغصان الصنوبر، زكية الرائحة.

ليس جمال أوليسا وحده، ما سحرني فيها، بل وكذلك طبيعتها المخلصة، الأصلية والحرة، وعقلها الراجح، والملفع، في الوقت نفسه، بالوسواس الوراثي الراسخ، والبريء، براءة الأطفال، والذي لا يخلو من الدلال الماكر للمرأة الجميلة. لم تمل الاستفسار مني بالتفصيل عن كل ما يشغل خيالها البدائي الجامح: عن البلدان والأقوام، وعن ظواهر الطبيعة، وعن نظام الأرض والكون، وعن العلماء، وعن المدن الكبرى... الكثير بدا لها مدهشاً خرافياً وعجيباً. لكنني لجأت، منذ بداية تعارفنا، إلى التعامل معها بأسلوب جدي، بسيط وصادق، مما جعلها تثق بكل ما أخبرتها به ثقة تامة. وفي بعض الأحيان، حين أجد صعوبة في إيضاح شيء ما، قد يبدو لي أنه أصعب من أن يستوعبه رأسها، شبه البري (وأحياناً غير المفهوم جداً بالنسبة إليّ)، كنت أعترض على أسئلتها الملهوفة بقولي: «الواقع... لن أتمكن من إيضاح هذا لك... لن تفهميني».

حينئذ تأخذ تتوسّلُ إلي:

- كلا، من فضلك، من فضلك، سأحاول. قل لي بطريقة ما... حتى ولو كان ذلك غير مفهوم...

كانت ترغمني على الاسترسال في المقارنات الفظيعة، والأمثلة بالغة الجرأة، وإذا ما وجدت صعوبة في العثور على التعبير، كانت تساعدني بنفسها، فتطمرني بسيل كامل من الأسئلة اللجوجة، كتلك التي نعرضها على المتلعثم،

وهو يبحث جاهداً عن الكلمة المناسبة. وبالفعل، ففي خاتمة المطاف تكون الغلبة لعقلها الراجح، وخيالها الجامح على عجزي التربوي. وبشكل لا إرادي ازدادت قناعتي بأنها تتمتع بقدرات مدهشة، في ضوء محيطها وتربيتها (والأصح في غياب هذه التربية تماماً).

ذات مرة جئت على ذكر بطرسبورغ. وعلى الفور أبدت أوليسا اهتمامها:

- ما هي بطرسبورغ؟ بلدة؟

- كلا، ليست بلدة، بل هي المدينة الروسية الأكبر.

- الأكبر؟ أكبر من أية مدينة أخرى؟ وليس ثمّةَ مدينة أكبر منها؟ - راحت تسأل بإلحاح.

- بلى... ففيها تعيش القيادة الأولى كلها... كبار السادة... والمنازل هناك كلها حجرية، وليس ثمّةَ بيوت خشبية.

وسألت أوليسا بثقة:

- لا شك أَنّها اكبر من مدينتنا ستيبان؟

- أوه اجل... أكبر بقليل، بما يقرب الخمسمئة مرة.

وهناك توجد بيوت، يقطن فيها منها ما يفوق سكان ستيبان بمرتين.

وتساءلت أوليسا، وقد اعتراها الخوف:

- آخ، يا إلهي، أية بيوت هذه؟

وكما هي العادة، فقد اضطررت للجوء إلى المقارنة.

- إنها بيوت هائلة، من خمسة، ستة، لا بل وسبعة طوابق. هل ترين شجرة الصنوبر تلك؟

- الشجرة الكبيرة؟ بلى أراها.

- إن البيوت بارتفاعها، وكلها محشوة بالناس، من عاليها إلى أسفلها. يعيش هؤلاء الناس في أعشاش صغيرة، كما الطيور في الأقفاص، بما يقرب العشرة أشخاص في كل قفص، مما يجعل الهواء فيها غير كاف. وبعضهم يعيش في الأسفل، تحت الأرض مباشرة، وسط الرطوبة والبرد، وقد يصدف أنهم لا يرون الشمس في غرفهم على مدار العام.

وقالت أوليسا، بعد أن هزت رأسها:

- إنني ما كنت لأبادل بغابتي مدينتك، مهما كلف الأمر. فحتى في ستيبان، ما إن أذهب إلى البازار، حتى أشعر بالقرف. يتدافعون، ويضجون، ويتشاتمون... فيستبد بي الشوق إلى الغابة، وأكاد أتخلى عن كل شيء، وأجري، لا ألوي على شيء... لا حاجة لي بمدينتك، لا يمكن أن أعيش فيها أبداً.

وسألت بابتسامة خفيفة:

- طيب، وإذا ما كان زوجك من المدينة؟

قطبت حاجبيها، وارتعش خيشوماها الدقيقان، وقالت باحتقار:

- هذا ما ينقصني، لست بحاجة إلى أي زوج.

- إنك تتحدثين الآن على هذا النحو يا أوليسا. جميع الفتيات تقريباً يقلن الشيء نفسه، ومع هذا فهن يتزوجن. انتظري قليلاً: ستلتقين بأحدهم، وتحبينه - حينها لن تذهبي معه إلى المدينة فقط، بل وإلى أطراف العالم.

واعترضت بحزن:

- أخ. كلا، كلا... من فضلك، لن نتحدث عن ذلك. ما الداعي إلى هذا الحديث... لا داعي، أرجوك.

- كم أنت مضحكة يا أوليسا. هل يعقل أنك تعتقدين أنك لن تحبي رجلاً في حياتك؟ أنت شابة، جميلة وقوية. إذا ما اضطرم الدم فيك، حينها تلغى النذور.

وردت أوليسا بتحد، وقد تلألأت عيناها:

- وليكن - سوف أقع في الحب، ولن أستأذن أحداً...

وقلت مشاكساً:

- هذا يعني أنك ستتزوجين؟

وسألت، وقد أدركت بحدسها:

- هل تقصد الكنيسة بكلامك؟

- الكنيسة طبعاً... سيدور بك الخوري من حول الأنالوي(١)، بينما يتلو الشماس: «افرح يا إيساي»، وعلى رأسك سيضعون الإكليل...

أرخت أليسا جفنيها، وهزت رأسها سلباً، مع ابتسامة خفيفة:

ـ كلا يا عزيزي... ربما لن يعجبك ما سأقوله لك، لكن أحداً في أسرتنا لم يتكلل: وقد عاشت أمي وجدتي بدون هذا... ثم إنه لا يجوز لنا دخول الكنيسة...

---

(١) Analogeteion منضدة عالية. ذات سطح مائل، يوضع عليها الإنجيل، أو الأيقونة، أثناء عقد القران الكنسي. **[المترجم]**

- هذا كله بسبب ممارستكن السحر؟

وبجدية هادئة ردت أوليسا:

- نعم، بسبب سحرنا، فكيف أتجاسر على الظهور في الكنيسة، ما دامت روحي مباعة له[1]، منذ ولادتي.

- أوليسا... عزيزتي... صدقيني أنك تخدعين نفسك بنفسك... إن ما تقولينه سخيف ومضحك.

مرة أخرى ظهر على وجه أوليسا التعبير الغريب، الذي سبق أن لاحظته، تعبير الاستسلام اليقيني الكئيب لقدرها الغامض.

- كلا، كلا... إنك لا تستطيع فهم هذا، أما أنا فأشعر بذلك... هاهنا - ثم ضغطَت بيدها على صدرها بقوة - لديَّ شعور داخليٌّ. كلُّ أرومتنا ملعونة، إلى أبد الآبدين. احكم بنفسك: منَ يساعدنا، إن لم يكن هو؟ هَل بوسع الإنسان العادي أن يقوم بما أقوم به؟ إنَّ قوتنا مستمدة منه.

وفي كل مرة نتطرّق في حديثنا إلى هذا الموضوع، ينتهي النقاش على هذا النحو. عبثاً استنفدت كل الحجج المفهومة لأوليسا، وعبثاً تحدثت بشكل مبَّسط عن التنويم المغناطيسي، عن الإيحاء، عن الأطباء النفسانيين، وعن الفقراء الهنود، وعبثاً حاولت أن أقدم التفسيرات الفيسيولوجية لبعض تجاربها، بما فيها، مثلاً، ملعوب الدم، الذي يعتمد، بكل بساطة، على الضغط الحاذق على الوريد، بيد أن أوليسا، التي تثق بي، في كل شيء آخر، ظلت ترفض

---

(١) له: تقصد للشيطان. [المترجم].

بإصرار عنيد كل براهيني وتفسيراتي... وتقول، وهي ترفع صوتها، متحمسة للنقاش، - طيب، بالنسبة لملعوب الدم، سأوافقك الرأي، ليكن. وماذا عن الأمور الأخرى؟ فهل يقتصر الأمر على رقية الدم فقط؟ هل تريد أن أطرد لك كل الجرذان والصراصير من البيت، في يوم واحد؟ وهل تريد أن أقضي بالماء العادي على الحمى الأشد، حتى ولو رفض جميع الأطباء معالجة المريض؟ وهل تريد أن أجعلك تنسى تماماً كلمة معينة؟ ثم كيف أجيد تفسير الأحلام؟ وكيف أقرأ المستقبل؟

دائماً ينتهي هذا النقاش بصمتنا، أنا وأوليسا، ونحن نشعر بزعل داخلي من بعضنا. وبالفعل فإنني لم أتمكن من العثور في جعبتي العلمية المتواضعة على تفسير كثير من جوانب فنها الأسود. لست أعلم، ولا أستطيع القول، إن كانت أوليسا تتقن، ولو نصف تلك الأسرار، التي تتحدث عنها، بثقة ساذجة، لكن ما رأيته بأم العين أحياناً جعلني على اقتناع راسخ أن أوليسا ملمة ببعض المعارف الغريبة، غير الواعية، الغريزية، الضبابية، التي تم التوصل إليها بالتجربة العابرة، والتي سبقت العلوم البحتة بمئات السنين، وتعيش، ممزوجة بالمعتقدات المضحكة والخرافية لدى الدهماء الجاهلة، والمنطوية على نفسها، ويتم توارثها من جيل إلى جيل، باعتبارها من أعظم الأسرار.

على الرغم من اختلافنا الحاد في هذه النقطة الوحيدة، فقد ازددنا تعلقاً ببعضنا، بشكل أقوى وأمتن. وحتى الآن لم يكن أحدنا قد تفوه بكلمة واحدة عن الحب بيننا، لكن الاجتماع مع بعض أصبح بالنسبة إلينا حاجة، وغالباً ما كنت ألاحظ، عندما تلوذ بالصمت، وتتلاقى نظراتنا بشكل عفوي، كيف تترطب عينا أوليسا، وكيف ينبض العرق الدقيق الأزرق على صدغها...

وبالمقابل فإن علاقاتي مع يارمولا ساءت تماماً. فمن الواضح أن زياراتي للكوخ، القائم على ساقي الدجاجة، ونزهاتي المسائية مع أوليسا، لم تخف عليه: فهو يعرف دائماً، وبدقة مدهشة، كل ما يجري في غابته. ومنذ بعض الوقت لاحظت أنه بدأ يتجنبني. وفي كل مرة أتأهب فيها للذهاب إلى الغابة، تروح عيناه السوداوان تراقبانني من بعيد، بلوم واستياء، على الرغم من أنه لم ينطق بكلمة واحدة، تعبيراً عن استيائه. وتوقفت دروسنا الجدية - الهزلية. وكنت، إذا ما دعوت يارمولا أحياناً للدراسة مساء، فإنه يلوح بيده، ويقول باحتقار كسول:

- لأي غرض! لا جدوى من ذلك يا بانيتش.

ثم إننا لم نعد نذهب إلى الصيد. وفي كل مرة أثير فيها هذا الموضوع، يجد يارمولا ذريعة للرفض: تارة البندقية لديه عاطلة، وتارة الكلب مريض، وثالثة هو نفسه مشغول. وغالباً ما يرد يارمولا على دعوتي بقوله: «لا وقت لدي يا بانيتش... لابد من الحراثة اليوم». وكنت أعرف جيداً أنه لن يقوم اليوم بالحراثة أبداً، بل سيمضي النهار كله يدور حول الحانة، والأمل المشكوك فيه يحدوه في أن يستضيفه أحدهم. ولقد أخذ هذا العداء الصامت والمكتوم يرهقني، حتى أنني رحت أفكر بالتخلي عن خدمات يارمولا، مستغلاً أول ذريعة مناسبة... لكن ما أوقفني عن ذلك هو الشعور بالشفقة على أسرته الكبيرة والفقيرة، فالروبلات الأربعة، التي أدفعها ليارمولا، تساعدها في تجنب الموت جوعاً.

-٧-

ذات مرة، وحين وصلت الكوخ، القائم على ساقي الدجاجة، قبيل المساء، على عادتي، لفت نظري في الحال المزاج المغموم لقاطنتيه. فالعجوز جالسة ورجلاها على السرير، وقد تقوست، واحتضنت رأسها بيديها، وهي تتأرجح إلى الأمام والخلف، وتتمتم بصوت غير واضح. ولم تولِ سلامي أي اهتمام. أما أوليسا فقد سلمت علي بلطف، كما هي العادة، لكن الحديث بيننا لم يستو. من الواضح أنها تصغي إلي بشرود، وترد بشكل خارج عن الموضوع، وعلى وجهها الجميل ارتسم ظلُّ همّ داخلي متواتر.

فقلت، وأنا ألامس بحذر يدها، الراقدة على المقعد:

- أرى أن شيئاً سيئاً حدث عندكم يا أوليسا.

التفتت أوليسا إلى النافذة بسرعة، كأنها تتفحص شيئاً هناك. إنها تحاول أن تبدو هادئة، لكن حاجبيها تحركا واهتزا، بينما عضت شفتها السفلى بأسنانها، ثم قالت بصوت خافت:

- أبداً، وما الذي يمكن أن يحدث عندنا. كل شيء ما زال على عهده القديم.

- لماذا تكذبين علي يا أوليسا؟ هذا سلوك سيء من ناحيتك... بينما كنت أعتقد أننا أصبحنا صديقين تماماً.

- لا شيء هناك حقاً... هكذا... لدينا همومنا... أشياء تافهة...

- كلا يا أوليسا، يبدو أنها ليست تافهة، انظري إلى نفسك، فأنت لم تعودي تشبهين نفسك.

- هذا ما يبدو لك، لا أكثر.

- كوني صريحة معي يا أوليسا. لست أدري إن كان بمقدوري مد يد العون إليك، لكن يمكن أن أسدي نصيحة ما، على الأقل... ثم وأخيراً، ستخف معاناتك، إذا ما شاطرك أحد محنتك.

واعترضت أوليسا، وقد نفد صبرها:

- آخ، بالفعل. إن هذا لا يستحق حتى مجرد الحديث عنه. وليس بمقدورك أن تساعدنا بشيء.

فجأة تدخلت العجوز في حديثنا بحماسة، غير معهودة:

- ما بالك ترفضين يا حمقاء! يعرضون عليك المساعدة، أما أنت فتشمخين بأنفك، كأنه ليس ثمة من يضاهيك ذكاء في الدنيا. اسمح لي، أيها السيد، أن أخبرك القصة بالترتيب- قالت العجوز ذلك، والتفتت ناحيتي.

اتضح أنّ أبعاد المكروه أكبر بكثير مما اعتقدت، استناداً إلى كلام أوليسا الأبية. فمساء البارحة جاء إلى الكوخ، القائم على ساقي الدجاجة، الشرطي المحلي.

وقالت مانوليخا:

- في البداية جلس بأدب، وطالب بالفودكا، بعد ذلك انطلق من عقاله، وقال: عليك أن تغادري البيت بكل ما عندك، خلال أربع وعشرين ساعة. وأضاف: إذا ما جئت المرة القادمة، ووجدتك، فليكن في علمك أنّ الترحيل بانتظارك، وسوف أعيدك أيتها الملعونة إلى موطنك، مخفورة

بجنديين. أما موطني يا باتوشكا فبعيد، مدينة أمتشينسك... لم يعد لديَّ الآن من أعرفه هناك... ثم إنَّ خوياتنا(١) منتهية الصلاحية، أضف إلى ذلك أنَّ فيها أغلاطاً. آخ يا إلهي، يا لتعاستي.

وسألتُ:

- لماذا سمح لك في الماضي بالعيش هنا، ثُمّ غيَّر رأيه الآن؟

- لا أعرف... لقد راح يثرثر بأشياء، لم أفهم منها شيئاً. والواقع أَنّ هذا الكوخ، الذي نسكن، ليس لنا - بل كان في الماضي ملكاً للإقطاعي، في الماضي كنت أعيش مع أوليسا في القرية، ثم...

- أعرف، أعرف يا جدتي، سمعت القصة... لقد غضب منك الفلاحون...

- أجل، أجل، هكذا. حينها حصلت على هذا الكوخ، بعد توسلي إلى الإقطاعي العجوز، السيد أبراسيموف. والآن، يقال إن إقطاعياً جديداً اشترى الغابة. كما يقال إنه يقوم بتجفيف بعض المستنقعات، لكن بماذا أضايقهم؟

وقلت لها:

- ربما هذا كله كذب في كذب يا جدتي؟ وكل ما في الأمر أن الشرطي أراد الحصول على «حمراء»(٢).

---

(١) تقصد: هوياتنا. [المترجم]

(٢) المقصود زجاجة خمر. [المترجم]

- أعطيته يا عزيزي، لكنه لم يأخذ. تلك هي الحكاية. أعطيته ربع قطعة نقدية[1]، فرفض... لا بل إنه استشاط غضباً، حتى أنني لم أعد أعرف أين أقف. وراح يكرر على وتيرة واحدة:

«هيا انقلعي، انقلعي». فماذا نفعل الآن، نحن اليتامى المساكين؟ لو تمد إلينا يد العون يا باتوشكا العزيز. لو تعمل على إيقاظ ضميره، هذا الكرش، الذي لا يعرف الشبع، إذن لبقيت ممتنة لك مدى الحياة.

وقالت أوليسا بلوم، وبشكل متقطع:

- جدتي!

وغضبت العجوز:

- ماذا تريدين - جدتي! إنني جدتك للعام الخامس والعشرين، فماذا أفعل برأيك، هل من الأفضل أن أمشي حاملة الكيس[2]؟ لا تُصغِ إليها، أيها السيد، كن رحيماً، وإن كنت قادراً على فعل أي شيء، فافعل.

وبتعابير غير محددة، وعدت بالتشفع، رغم أن الأمل، والحقُّ يقال، بدا ضئيلاً. فما دام شرطينا رفض، ولم «يأخذ»، فهذا يعني أن الموضوع جدِّي فعلاً. في هذه الأمسية ودعتني أوليسا ببرودة، وعلى غير عادتها، لم ترافقني. لقد رأيت أن الفتاة، عزيزة النفس، مستاءةٌ مني، على تدخّلي، وتخجل قليلاً من تباكي جدتها.

---

(١) ٢٥ روبلاً. **[المترجم]**

(٢) كناية عن التسول. **[المترجم]**

- ٨ -

كان صباحاً غائماً دافئاً، عدة مرات شرع يهطل مطر غزير، قصير ومبارك، يعقبه على الفور نمو الأعشاب الفتية، وبروز الأفراخ الجديدة. وبعد المطر تطل الشمس قليلاً، فتسكب التلألؤ البهيج على الخضرة الفتية، التي لا تزال غضَّة، لليلك، المغسول بالمطر، الذي يملأ حديقتي، وتتردد بشكل أقوى زقزقة عصافير الدوري، في المشاتل الرخوة، ويقوى أريج براعم الحور البنية اللزجة. كنت جالساً إلى الطاولة، أرسم مخطط الداتشا في الغابة، حين دخل يارمولا الغرفة.

وقال بتجهم:

- الشرطي موجود.

في هذه اللحظة كان قد تبخر من رأسي الأمر، الذي أصدرته إليه، منذ يومين، أن يبلغني، في حال قدوم الشرطي، ولم أستطع أن أدرك على الفور، ما هي علاقتي بممثل السلطة هذا، في اللحظة الجارية.

فسألت بحيرة:

- ماذا تريد؟

وكرر يارمولا، بلهجة العداء نفسها، التي أصبح يخاطبني بها، إجمالاً، في الأيام الأخيرة:

- أقول إنَّ الشرطي قد وصل، للتوَّ رأيته على السّدَّ. إنه قادم إلى هنا.

سمعت قرقعة العجلات في الخارج. اندفعت إلى النافذة، على عجل، وفتحتها. كان الحصان الطويل، النحيف، البني اللون، ذو الشفة السفلى، المتدلية، والخطم المتجهم، يجر، بخبب رزين، عربة مضفورة، لا تكف عن

التماثيل، شد إليها بوساطة عريش واحد فقط، أما العريش الثاني فقد استبدل به حبل ثخين (تؤكد ألسنة السوء في المحلة أن الشرطي اقتنى مثل هذه «العربة» البائسة، لقطع دابر التقولات، غير المستحبة، على أنواعها). كان الشرطي يسوق الحصان بنفسه، ويشغل، بجسمه الهائل، المدثر بمعطف رمادي، من نسيج الضباط المهندم، المقعدين كليهما.

وصرخت، وأنا أطل من النافذة:

- احترامي يا يفبسيخي أفريكانوفيتش.

فرد بصوت باريتون لطيف، مُدَوٍّ وقيادي:

- آ، احترامي! كيف الصحة؟

شد عنان الحصان، وبعد أن لامس براحته المقومة، حافة قبعته، أحنى جذعه، برشاقة ثقيلة إلى الأمام.

- تفضل لدقيقة، هناك أمر، أود محادثتك بشأنه.

- لا أستطيع! فأنا الآن في مهمة. إنني ذاهب إلى فولوشا، لمعاينة جثة غريق.

كنت أعرف نقطة ضعف يفبسيخي أفريكانوفيتش، فقلت، بلا مبالاة مصطنعة:

- شيء مؤسف. شيء مؤسف... أما أنا فقد حصلت من مزرعة الكونت فورتسل على زجاجتين رائعتين...

- لا أستطيع. إنه واجب الخدمة...

- لقد باعني الطاهي إياهما من باب المعرفة. لقد أشرف على هذه الخمرة في القبو، كأنها أحد أولاده... لو تعرج... أما حصانك، فسآمر أن يقدم له الشوفان.

وقال الشرطي معاتباً:

- يا لك من لجوج، حقاً. ألا تعرف أنَّ الخدمة في المقام الأول؟... وماذا في هاتين الزجاجتين؟ سليفيانكا(1)؟

ولوحت بيدي، قائلاً:

- أي سليفيانكا، إنها فودكا ستاركا، يا باتوشكا.

حك الشرطي ذقنه بأسف، وغضن وجهه إلى حد كبير:

- الواقع أنني تناولت اللماج.

وتابعت بالهدوء السابق:

- لا أعرف حقاً، إن كان ذلك صحيحاً، لكن الطاهي أكد أنَّ عمرها مئتا عام. ورائحتها كما الكونياك تماماً.

صاح الشرطي بيأس مضحك:

- إيخ. ماذا تفعل بي! من سيتسلم حصاني؟

تبين بالفعل أن لدي عدة زجاجات ستاركا، غير أنها ليست معتقة على النحو، الذي تبجحت به، لكنني اعتمدت على أن قوة الإقناع ستضيف لها عّدة عشرات من السنين... وعلى كل فقد كانت ستاركا منزلية رائعة، مفخرة قبو

---

(1) نوع من الفودكا. **[المترجم]**

الإقطاعي الكبير، الذي أفلس. (سارع يفبسيخي أفريكانوفيتش، الذي يتحدر من أسرة دينية، فطلب مني زجاجة ليشربها، كما قال في حال إصابته بالنزلة...). وقد عثرت على المقبلات المناسبة: الفجل الطازج مع الزبدة المخفوقة للتوّ.

وبعد الكأس الخامسة، سأل الشرطي، وقد استند إلى ظهر الأريكة العتيقة، التي راحت تزقزق تحته:

- طيب. ما نوع موضوعك؟

شرعت أَبسط له وضع العجوز المسكينة، وذكرت عجزها ويأسها، وتطرقت بشكل عابر إلى الشكليات، غير اللازمة. أصغى الشرطي مطرق الرأس، وهو ينظف بطريقة مرتبة الفجل الأحمر الصلب الغض، من الجذور، ويمضغه بقرقشة شهية. وبين الفينة والأخرى يرفع نحوي على عجل عينيه الزرقاوين، العكرتين، اللامباليتين، الصغيرتين إلى حد مضحك، لكنني لم أستطع أن أقرأ على محياه الضخم أي شيء: لا التعاطف، ولا الرفض. وحين انتهيت أخيراً، اكتفى بسؤالي:

- طيب، وما الذي تريده مني؟

فأجبت بقلق:

- ما هذا السؤال؟ فكر في حالتهما بعمق. إنهما امرأتان مسكينتان، عاجزتان.

وعلق الشرطي بخبث:

- وإحداهما كما البرعم في الحديقة.

- برعم، أم غير برعم، هذا لا يقدم، ولا يؤخر. طيب ما المانع من أن تساعدهما؟ ما الذي يدفعك إلى التعجيل في طردهما؟ على الأقل انتظر

قليلاً، إلى أن أتوسط بنفسي لدى المالك. بماذا تجازف، إذا ما انتظرت حوالي شهر؟

وهنا هب الشرطي من على الأريكة واقفاً، وقال:

- كيف بماذا أجازف؟ رحماك، إنني أجازف بكل شيء، وبعملي بالدرجة الأولى. الله وحده يعلم أي شخص هو السيد إيلياسيفيتش، المالك الجديد. ربما هو خبيث... من أولئك الذين يسارعون، عند أقل هفوة، إلى تناول الورقة والريشة، وإبلاغ بيتربورغ؟ إن أمثال هؤلاء موجودون لدينا.

جربت أن أطمئن الشرطي الهائج:

- كفاك يا يفبسيخي أفريكانوفيتش. إنك تضخم هذا الأمر كله. وأخيراً ماذا تريد؟ فالمجازفة مجازفة، والامتنان هو على كل حال امتنان.

وصفر الشرطي بشكل ممطوط، ودس يديه عميقاً في جيبي سرواله:

- أفٍّ... يا له من امتنان! هل تعتقد أنني سأراهن بمنصبي من أجل خمسة وعشرين روبلاً؟ كلا، إنك لا تعرفني جيداً، من هذه الناحية.

- ما بالك تحتد يا يفبسيخي أفريكانوفيتش. الأمر هنا لا يتعلق بالمبلغ أبداً، بل هكذا... من باب الإنسانية، على الأقل.

وبكل سخرية راح ينطق بكل مقطع بوضوح:

- من با - بـ الـ - إن - سانية؟ اسمح لي، لكن هاتين الإنسانتين تقبعان هنا.

ثم ضربَ بقوة على قذالهِ، البرونزيّ الضخم، الذي يتدّلى طية دهنية حلساء، فوق ياقته.

- أعتقد أنك تجاوزت الحد، يا يفبسيخي أفريكانوفيتش.

- أبداً، لم أتجاوز الحد. «إنهما مصيبة هذه الأماكن، على حد تعبير السيد كريلوف[1]، مؤلف الحكايات المشهور، هذه هي حقيقة هاتين السيدتين». ألم تقرأ المؤلَّف الرائع لصاحب الفخامة، الأمير أوروسوف، بعنوان «الدركي البوليسي»؟

- كلا لم أقرأه.

- خسارة كبيرة. يا له من مؤلف رائع، وعلى مستوى أخلاقي عالٍ. أنصحك أن تطَّلع عليه في أوقات الفراغ.

- طيب، طيب، سوف أطَّلع عليه بكل سرور. لكنني، مع هذا لا أفهم ما هي العلاقة بين هذا الكتيب وبين المرأتين المسكينتين؟

- ما هي العلاقة؟ إنها علاقة مباشرة جداً. البند الأول (يعقف يفبسيخي أفريكانوفيتش سبابته اليسرى السمينة والمكسوة بالشعر) «على الشرطي أن يبقى ساهراً على أن يتردد الجميع على معبد الرب، بكل حماسة، ويمكثوا فيه، لكن بشكل غير قسري...». والآن اسمح لي أن أعرف هل هذه... ما اسمها... مانوليخا، أليس كذلك؟... هل تذهب إلى الكنيسة، في أي وقت من الأوقات؟

بقيت صامتاً، وقد دهشت من هذا التحول المفاجئ في مجرى الحديث. نظر إليَّ نظرة الظافر، ثم عقف الإصبع الثانية: البند الثاني: «يحظر كشف

---

(١) إيفان كريلوف (١٧٦٩ - ١٨٤٤) كاتب روسي، له مئات الحكايات على ألسنة الحيوانات والطيور، على غرار «كليلة ودمنة». [المترجم]

الطالع المزيف وخزعبلات المشعوذين... أرأيت؟ ثم البند الثالث: «يحظر ادعاء السحر، أو ممارسة الشعوذات من هذا النوع. ما رأيك في هذا؟ وماذا لو انكشف هذا فجأة، أو أبلغ أحدهم الرئاسة عن ذلك؟ من هو المسؤول؟
- أنا. ومن يطرد من الخدمة؟ أنا. أرأيت لب المشكلة»؟

عاد فجلس على الأريكة من جديد، وراحت عيناه، المرتفعتان إلى الأعلى، تطوفان جدران الغرفة بشرود، بينما أصابعه تنقر على الطاولة، بصوت عال.

وعدتُ أقول له بنبرة لطيفة:

- طيّب وإذا ما طلبت منك يا يفبسيخي أفريكانوفيتش. إنَّ واجباتك معقدة وشائكة بالطبع، لكنني أعرف أنَّ لديك قلباً رؤوفاً، قلباً من ذهب، ماذا يضيرك أن تعدني أنّك لن تمسَّ هاتين المرأتين؟

فجأة توقفت عينا الشرطي فوق رأسي: وقال غير مكترث، دون أن يتوقف عن النقر:

- إنَّ لديك بندقيةً جيدةً، بندقية ممتازة. المرة السابقة، حين عرجت إليك، ولم أجدك في البيت، تفرجت عليها بإعجاب. يا للبندقية البديعة.

وبدوري التفتُّ برأسي إلى الخلف، ونظرت إلى البندقية، ثم قلت مادحاً:

- فعلاً. البندقية لا بأس بها. فهي عريقة، مصنع غاستين ـ رينيت، العام الماضي فقط اشتريتها، ثم عدلتها. هلا نظرت إلى السبطانة المزدوجة.

- كيف لا، كيف لا... إن ما أعجبني بشكل خاص هو السبطانة المزدوجة، تحفة رائعة... بكل بساطة يمكن القول إنها كنز.

تلاقت أعيننا، ورأيت ابتسامة خفيفة، لكنها ذات مغزى، ترتسم على زاوية شفتيه. نهضت من مكاني، أخذت البندقية عن الجدار، واقتربت من يفبسيخي أفريكانوفيتش، حاملاً إياها، ثم قلت له بلطف:

- لدى الشراكسة عادة جيدة، أن يهدوا الضيف كل ما يمدح. وعلى الرغم من أننا لسنا شركسيين يا يفبسيخي أفريكانوفيتش، فإنني أرجوك قبول هذه البندقية مني كذكرى.

تظاهر الشرطي بالخجل:

- رحماك، مثل هذه الروعة. كلا، كلا، إنها عادة في منتهى السخاء.

لكنني لم أجد صعوبة كبيرة في إقناعه. قبلَ الشرطيُّ البندقية، ووضعها بحذر بين ركبتيه، وبكلِّ لطف مسح الغبار الذي يغطي قوس الزناد بمنديل نظيف. شعرت ببعض الطمأنينة، إذ رأيت أنَّ البندقية على الأقل انتقلت إلى يدي هاوٍ ماهر. وعلى الفور تقريباً، نهض يفبسيخي أفريكانوفيتش، واستعجل في الرحيل، وقال، وهو يضرب قالوشه بقوة على الأرضية:

- لابد من الرحيل، أما أنا فقد ثرثرت معك. حين تكون في مناطقنا، تفضل إليّ.

وذكّرتُه بلباقة:

- وماذا بشأن مانوليخا أيها السيد الرئيس؟

ودمدم يفبسيخي أفريكانوفيتش بشكل مبهم:

- سننظر، سنرى... ثم إنني أردت أن أطلب منك شيئاً آخر... إن الفجل لديك رائع.

- لقد زرعته بنفسي.

- فجل ر - رائع. الواقع أنَّ زوجتي تعبد الخضراوات بأنواعها. وهكذا، إذا كان بالإمكان... باقة واحدة.

- بكل طيبة خاطر، يا يفبسيخي أفريكانوفيتش. أعتبر هذا واجبي... اليوم سأرسل سلة مع الساعي. واسمح لي أن أرسل بعض الزبدة أيضاً... فالزبدة عندي فريدة من نوعها.

وتكرم الشرطي بالموافقة:

- طيب، وبعض الزبدة... أما تلكما المرأتان فاعطهما خبراً أنني لن أتعرض لهما، في الوقت الحاضر. لكن دعهما تعرفان - فجأة رفع صوته - أنهما لن تتخلصا مني لقاء كلمة شكر فقط. والآن أتمنى لك الصحة والعافية. مرة أخرى ميرسي لك على الهدية، وحسن الضيافة.

وعلى الطريقة العسكرية ضرب بكعبيه، وبمشية متثاقلة للإنسان الشبعان والهام، اتجه إلى عربته، حيث يقف مختار القرية ويارمولا بإجلال، وهما حاسرا الرأس.

-٩-

بَرَّ يفبسيخي أفريكانوفيتش بالوعد، الذي قطعه. ولفترة غير محددة ترك قاطني بيت الغابة وشأنهما. لكن علاقاتي مع أوليسا تغيرت بشكل حاد وغريب، وأصبحت معاملتها لي خالية من أي أثر للحنان السابق، الساذج، والمفعم بالثقة، وللحيوية السابقة، حيث يمتزج بلطف دلال الفتاة الحسناء بالميل إلى المداعبة الصبيانية. وظهر في حديثنا تكلُّف محرج لا يقهر. وبوجل عجول أصبحت أوليسا تتجنب المواضيع الحيوية، التي منحت فضولنا، في الماضي، آفاقاً لا حدود لها.

أثناء وجودي أصبحت تنصرف للعمل بكل كيانها، لكنني غالباً ما كنت ألاحظ أَنَّ يديها، وهي منكبة على العمل، تتدليان عاجزتين، فوق ركبتيها، بينما عيناها مصوبتان بشكل ثابت وغير محدد، نحو الأسفل، إلى الأرض، وإذا ما قمت، في أثناء ذلك، بمناداة أوليسا باسمها، أو إذا ما طرحت عليها سؤالاً، فإنها تجفل، وتدير وجهها نحوي ببطء، وقد ارتسمت عليه ملامح الخوف، والجهد المبذول لفهم مغزى كلامي. كان يُخيَّل إليَّ أحياناً أَنَّ وجودي يثقل عليها، ويضايقها، لكن هذا الظن لم يكن يتماشى مع ذلك الاهتمام الكبير، الذي كانت تثيره لديها، منذ عدة أيام فقط، كل ملاحظة من ملاحظاتي، وكل جملة... لم يبق إلا الظن أَنَّ أوليسا لا تريد أن تغفر لي توسطي لدى الشرطي، الذي أثار امتعاضها بسبب طبيعتها المستقلة. وهذا التقدير لم يقنعني أيضاً. فمن أين للفتاة، التي ترعرعت في أحضان الغابة، مثل هذا الكبرياء، المرهف إلى هذا الحد؟

كل ذلك كان يحتاج إلى تفسير، لكن أوليسا أخذت تتهرب بعناد من أية فرصة مناسبة للحديث الصريح. ثم إنَّ نزهاتنا المسائية توقفت. عبثاً كنت ألقي عليها كل يوم، وأنا أهم بالانصراف، نظرات متوسلة بليغة، فقد كانت تتظاهر أنها لا تفهم مغزاها. ثم إنَّ حضور العجوز، على الرغم من طرشها، أصبح يضايقني.

أحياناً كنت أمتعض من عجزي، ومن العادة، التي تجرني كل يوم إلى أوليسا، ثم إنني، أنا نفسي، لم أكن أدرك كنه الخيوط الدقيقة، المتينة والخفية، التي تربط قلبي بهذه الفتاة الحسناء، الغامضة، بالنسبة إليّ. حتى الآن لم أكن قد فكرت بالحب، لكنني بدأت أعاني من مقدمات مرحلة الحب، المفعمة بالانفعالات المبهمة، المضنية والحزينة. حيثما أكن، ومهما حاولت أن أتسلَّى،

فإن أفكاري كلها تظل مشدودة إلى أوليسا، وبكل كياني أهفو إليها، ولدى تذكري، حتى كلماتها التافهة أحياناً، وحركاتها وابتساماتها، يخفق قلبي بألم هادئ ولذيذ، لكن ها هو المساء يخيم، وأنا ما زلت جالساً قربها، على المقعد الواطئ المتقلقل، وأشعر بكل حزن أنني أكثر وجلاً، وارتباكاً، وأقل فطنة.

ذات مرة أمضيت على هذا النحو يوماً كاملاً مع أوليسا. ومنذ الصباح شعرت أنني لست على ما يرام. وإن كنت لا أزال غير قادر بعد على تحديد كنه مرضي. وبحلول المساء، ازدادت حالتي سوءاً. فقد أصبح رأسي ثقيلاً، وشعرت بدوي في أذني، وبألم غير حاد لا يتوقف في يافوخي، كما لو أن أحداً يضغط عليه، بيد ناعمة، وقوية. وشعرت بجفاف في فمي، وباستمرار راح ينسكب في جسمي كله وهن خامل، ساج، مما جعلني أشعر بالرغبة في التثاؤب والتمطي كل دقيقة. وفي عيني أحسست بألم، كما لو أنني للتو توقفت عن النظر إلى نقطة براقة بتركيز، وعن قرب.

وفي طريق العودة، في ساعة متأخرة من المساء، أصابتني في منتصف الطريق تماماً، نوبة برداء عاصفة، زعزعتني. كنت أمشي، وأنا لا أكاد أميز الطريق، ولا أعي إلى أين أنا ذاهب، أتمايل كما السكران، بينما تصطك أسناني بصوت عالٍ ومتوال.

حتى الآن لا أعرف من الذي أوصلني إلى البيت... ستة أيام كاملة ظلت تعذبني البرداء الفظيعة، دون تراجع. نهاراً، كان يبدو وكأن المرض يهدأ، وأسترد وعيي. وعندها كنت، وقد أنهكني المرض تماماً، بالكاد أطوف في الغرفة، وأنا أشعر بالألم والوهن في ركبتي، ولدى أية حركة قوية، يندفع الدم موجة ساخنة إلى رأسي، ويجلبب كل شيء أمام ناظري بالظلام. أما عند المساء، عادة في حوالي

السابعة، فتنقض نوبة المرض علي، كما العاصفة الهوجاء، وأقضي ليلة فظيعة، طويلة، كأنها مئة عام، تارة أرتجف، تحت اللحاف من البرد، وأخرى أستعر من السخونة، التي لا تطاق. ولا يكاد النعاس يداعب جفني، حتى تأخذ الأحلام السخيفة، المعذبة، المبرقشة بتلابيب دماغي المحموم. كل أحلامي طافحة بالتفاصيل الصغيرة الميكروسكوبية، المكدسة والمتشابكة، واحدة في إثر الأخرى في هرج ومرج فظيع. تارة أرى وكأنني أرتب أدراجاً مختلفة الألوان، غريبة الأشكال، فأخرج الصغيرة من الكبيرة، ومن الصغيرة أدراجاً أصغر، ولا أستطيع التوقف عن هذا العمل، الذي لا نهاية له، والذي يبدو لي، منذ وقت طويل، مثيراً للاشمئزاز. وتارة تتراءى أمام عيني بسرعة جنونية، الخطوط الطويلة والفاقعة لورق الجدران، وبدلاً من الزخارف، رأيت عليها، بوضوح مدهش، ضفائر من الوجوه البشرية - الجميلة، الطيبة والمبتسمة، أحياناً، وتلك المصعَّرة بشكل دميم، وقد مدت ألسنتها، وكشرت عن أسنانها، وجحظت عيونها. ثم لا ألبث أن أدخل مع يارمولا في جدل مجرد متشابك، في غاية التعقيد. ومن دقيقة إلى أخرى كانت الحجج، التي يسوقها كل منا، تزداد رقة وعمقاً، وكانت بعض المفردات، وحتى أحرف الكلمات تكتسب فجأة مغزى غامضاً جداً، وفي الوقت نفسه يتملكني، بشكل متزايد، الرعب، المثير للاشمئزاز من القوة الخفية الغاشمة، التي تدفع بالسفسطات الممسوخة، فتخرج من رأسي، واحدة في أعقاب أخرى، فلا أستطيع التوقف عن الجدل، الذي سئمت منذ زمن.

زوبعة جياشة من الهيئات البشرية والوحشية والتضاريس والأشياء المدهشة، بأشكالها وألوانها، والكلمات والعبارات، ذات المعاني، التي تدرك بالأحاسيس كلها... والغريب أنني، في الوقت نفسه، بقيت أرى على السقف الدائرة المنتظمة المشرقة، المنبعثة من المصباح، ذي الغطاء الأخضر

المحترق. ولسبب ما كنت أعرف أن هذه الدائرة الهادئة، ذات الأطراف، غير المنتظمة، تخفي حياة صامتة، رتيبة، غامضة ورهيبة، تفوق في فظاعتها وكآبتها الفوضى العنيفة لأحلامي.

بعد ذلك كنت أستيقظ، والأصح، لم أكن أستيقظ، بل أجد نفسي فجأة نشيطاً منتعشاً، وأسترد وعيي تقريباً، فأدرك أنني أرقد في الفراش، وأنني مريض، وأن الهذيان قد فارقني للتو، ومع هذا ظلت الدائرة النيرة على السقف المظلم تخيفني، كخطر مشؤوم داهم. وبيد ضعيفة وصلت إلى الساعة، نظرت إليها، واقتنعت، بارتباك كئيب، أن كل المسلسل الطويل لأحلامي المشوهة لم يستغرق أكثر من دقيقتين - ثلاث دقائق. وقلت في نفسي، وأنا أحرك رأسي على الوسادتين الساخنتين، وأشعر كيف يحرق تنفسي الثقيل والقصير شفتي: «يا إلهي! متى سيحل الفجر في النهاية!».

ومن جديد غلبني النعاس الرقيق، ومرة أخرى أصبح دماغي لعبة للكابوس المبرقش، ومرة أخرى، وبعد دقيقتين، استيقظت، وقد استولت علي كآبة مميتة.

بعد ستة أيام تمكنت بنيتي القوية، بفضل الكينا ومنقوع نبات مزمار الراعي، من التغلب على المرض. نهضت من الفراش محطماً، وأنا بالكاد أقف على قدمي. حدث الشفاء بسرعة كبيرة. فأصبحت أشعر بالغياب الخامل والعذب للأفكار في رأسي، الذي أضناه هذيان الحمى، على مدى ستة أيام. وتضاعفت شهيتي، وراح جسمي يتقوى، ساعة بعد أخرى، وهو يمتص، بكل ذرة من ذراته، الصحة وبهجة الحياة. وفي الوقت نفسه تملكتني رغبة عارمة بالذهاب إلى الغابة، إلى البيت المائل، المنفرد. لم تكن أعصابي قد شفيت بعد، وفي كل مرة كنت أستحضر فيها وجه أوليسا وصوتها في ذاكرتي، أشعر برقة غاية في اللطف، إلى حد أنني كدت أبكي..

-١٠-

مرت خمسة أيام أخرى، تعافيت خلالها، إلى حد أنني مشيت حتى الكوخ، القائم على ساقي الدجاجة، ووصلته، دون أن أحس بالتعب، مثقال ذرة. حين وطأت عتبته، خفق قلبي، وتملكني خوف مقلق. فمنذ قرابة الأسبوعين لم أر أوليسا، والآن أدركت، بكل وضوح، كم هي حميمة وغالية علي. استندت إلى عضادة الباب، وأبطأت عدة ثوان، وأنا بالكاد ألتقط أنفاسي، حتى أنني، من شدة ارتباكي، أغمضت عيني قليلاً، قبل أن أدفع الباب.

من المستحيل تماماً إدراك كنه الانطباعات، الشبيهة بتلك، التي أعقبت دخولي، هل بالإمكان تذكر الكلمات، التي تقال في اللحظات الأولى من لقاء الأم بابنها، الزوج بزوجته، أو بين حبيبين؟ إن ما يقال هو جمل، في منتهى البساطة، وعادية جداً، لا بل مضحكة، إذا ما كتبتها على الورق. لكن كل كلمة هنا مناسبة ولطيفة جداً، لأنها تقال بأغلى صوت في الدنيا.

إنني أذكر، أذكر بوضوح كبير، فقط، أن وجه أوليسا الشاحب التفت نحوي، وفي لحظة واحدة انعكس عليه الذهول، الوجل، الاضطراب، وابتسامة الحب الناعمة المتهللة، كل منها يحل محل الآخر...

غمغمت العجوز بشيء ما، وهي تتحرك، بالقرب مني، لكنني لم أسمع ترحيبها. وتناهى إلي صوت أوليسا، كما الموسيقا العذبة:

- ماذا جرى لك؟ هل كنت مريضاً؟ أوي، لكم أصبحت نحيلاً، يا مسكيني.

لفترة طويلة لم أستطع الرد عليها بشيء، وبقينا صامتين، ونحن واقفان في مواجهة بعضنا، يمسك كل منا بيد الآخر، وينظر إليه، في عينيه مباشرة، بعمق

وسرور، دائماً أعتبر عدة الثواني الصامتة هذه الأكثر سعادة في حياتي، ولم يحدث أبداً، لا قبل ذلك ولا بعده، أن شعرت بمثل هذا الفيض الصافي الكاسح من الفرح. ويا لكثرة ما قرأت في عيني أوليسا الكبيرتين الداكنتين: انفعالات اللقاء، العتاب على الغياب الطويل، والاعتراف الحار بالحب... وشعرت أن أوليسا تهبني، مع هذه النظرة، كيانها كله، بسرور، دون أية شروط، ودون تردد.

كانت هي أول من أخل بهذا السحر، بحركة بطيئة من حاجبيها نحو مانويليخا. جلسنا متجاورين، وشرعت أوليسا تستجوبني بالتفصيل وبعناية، عن تطور مرضي، عن الأدوية، التي تناولتها، عما قاله الطبيب، الذي عادني مرتين، قادماً من البلدة، ورأيه. وقد أرغمتني أن أحدثها عن الطبيب، مرات متوالية، وأحياناً كنت ألاحظ ابتسامة عجولة ساخرة على شفتيها.

وهتفت بأسف، وقد نفد صبرها:

- آخ، كيف لم أعرف أنك مريض؟ إذن لجعلتك تقف على قدميك، في غضون يوم واحد... لكن كيف يمكن أن تثق بهم، وهم لا يفقهون شـ - يـ -ئاً.

وترددتُ قليلاً.

- الواقع يا أوليسا... أن ذلك حدث بشكل مفاجئ جداً... أضف إلى هذا أنني لم أرغب في إزعاجك، فقد أصبحت في الآونة الأخيرة غريبة في معاملتي، بالضبط كما لو أنك غاضبة علي، أو أنك سئمت مني... وأردفت، وقد خفضت صوتي - اسمعي يا أوليسا، ينبغي أن نتحدث مع بعض كثيراً، كثيراً... لكن وحدنا... هل تفهمين؟

أسدلت جفنيها بهدوء، علامة الموافقة، بعد ذلك التفتت نحو جدتها بوجل، ثم همست بسرعة:

- أجل... وأنا أيضاً أردت.. فيما بعد، انتظر...

لم تكد الشمس تميل إلى الغروب، حتى شرعت أوليسا تستحثني على الذهاب إلى البيت.

- وأنت إلى أين يا أوليسا؟ - سألت مانويليخا فجأة، وهي ترى أن حفيدتها أسرعت، فألقت على رأسها منديلاً صوفياً رمادياً كبيراً.

وردت أوليسا:

- سأذهب... سأرافقه قليلاً.

نطقت بذلك بلا مبالاة، وهي لا تنظر إلى جدتها، بل عبر النافذة، لكنني التقطت في صوتها ظلاً من التوتر، لا يكاد يلحظ.

وكررت العجوز سؤالها، بنبرة:

- ستذهبين إذن؟

لمعت عينا أوليسا، وراحتا تحدقان في وجه مانويليخا، واعترضت بأنفة:

- بلى، وسأذهب. لقد أشبعنا هذا حديثاً، من زمان... هذا الأمر يخصني، وأنا مسؤولة عنه.

وهتفت العجوز بأسى وعتاب:

- آه منك...

أرادت أن تضيف شيئاً، لكنها اكتفت بأن لوحت بيدها، واتجهت، بمشيتها المتثاقلة المرتجفة، إلى الركن، وراحت، وهي تتأوه، تبحث في إحدى السلال.

أدركت أن هذا الحديث الساخط القصير، الذي كنت شاهداً عليه للتو، إن هو إلا استمرار لمسلسل طويل من الخلاف وثورات الغضب المتبادلة. ولدى انحداري إلى جانب أوليسا، باتجاه الغابة، سألتها:

- لا تريد جدتك أن تذهبي للتنزه معي؟ أليس كذلك؟

هزت أوليسا كتفيها بأسىً:

- أرجوك ألّا تولي هذا اهتماماً. حسناً، بلى، إنها لا تريد... طيب... ألست حرة في أن أفعل ما يعجبني؟

فجأة شعرت برغبة جامحة في أن أعاتب أوليسا على قسوتها السابقة.

- هذا يعني أنه كان بوسعك أن تفعلي ذلك سابقاً، قبل مرضي، لكنك لم ترغبي أن تبقي معي، على انفراد... آخ يا أوليسا، لو تعرفين كم سببت لي من الألم... كم كنت أتوق، كم كنت أتوق كل مساء أن ترافقيني من جديد... أما أنت فكنت دائماً لا مبالية، ضجرة، غاضبة... أوخ، كم عذبتني يا أوليسا...

ورجتني أوليسا، باعتذار لطيف في صوتها:

- يكفي يا عزيزي... انس ذلك.

- لست أقول لك هذا من باب اللوم، بل هي المناسبة... الآن أدركت سبب ذلك... علماً أنني في البداية - من المضحك تذكر ذلك حقاً - اعتقدت أنك غضبت مني، بسبب الشرطي، ولقد أحزنتني هذه الفكرة كثيراً. حيث بدا لي أنك تعتبرينني إنساناً بعيداً وغريباً، إلى حد أنه يصعب عليك قبول حتى الخدمة الودية البسيطة... كم شعرت بالمرارة حينها... لكن لم يخطر لي ببال - يا أوليسا - أن هذا كله بسبب الجدة...

فجأة توّرد وجه أوليسا بحمرة زاهية، وهتفت، بحرارة وحماسة:

- أبداً، ليس بسبب الجدة... أنا نفسي لم أكن أريد ذلك.

حدجتها بنظرة جانبية، فرأيت البروفيل النقي الرقيق لرأسها، المنحني قليلاً. الآن فقط لاحظت أن أوليسا، هي الأخرى، قد نحلت، خلال الفترة المنصرمة، وارتسمت الظلال، المائلة للزرقة، حول عينيها. وإذ أحست بنظرتي، رفعت عينيها نحوي، لكنها أسبلتهما في الحال، والتفتت بابتسامة خجولة.

- ولماذا لم تريدي يا أوليسا؟ لماذا؟ - سألتها بصوت متقطع من التأثر، وأمسكت بيدها، وأرغمتها على التوقف.

كنا في هذا الوقت في منتصف الدرب الحرجي الطويل الضيق، والمستقيم، كما السهم، وكانت أشجار الصنوبر، العالية الممشوقة، تحيط بنا من الجانبين، مشكلة ممراً عملاقاً طويلاً، بقنطرة من الأغصان المتشابكة الفواحة. وكانت الجذوع العارية المقشرة مصبوغة باللمعان القرمزي للغسق الآفل.

ورحت أؤكد همساً، وأضغط على يدها أقوى، فأقوى:

- لماذا؟ لماذا يا أوليسا؟

ونطقت أوليسا بصوت بالكاد يسمع:

- لم أستطع... كنت خائفة، ظننت أن بإمكاني الهروب من القدر... أما الآن... الآن...

ضاق نَفَسُها، لكأن الهواء لا يكفيها، وفجأة التفت يداها بسرعة وبقوة من حول عنقي، واكتوت شفتاي بهمس أوليسا العجول والمرتجف:

- الآن الأمر سيان، سيان... لأنني أحبك، يا عزيزي، يا سعادتي، يا محبوبي...

أخذت تزداد بي التصاقاً، وأحسست بجسمها القوي، المتين والحار يرتعش بين يدي، وبتسارع خفقات قلبها، قرب صدري...

وقلت لها، وأنا أحاول فك يديها:

- أوليسا، لا داعي، بالله عليك... دعيني... فالآن أنا أيضاً خائف... خائف من نفسي... اتركيني يا أوليسا.

رفعت وجهها عالياً، فأشرق كله بابتسامة ساجية بطيئة، وقالت، بحنان لا يوصف، وجسارة مثيرة:

- لا تخف يا عزيزي. لن ألومك أبداً، ولن أغار عليك من أحد... فقط قل لي: هل تحبني؟

- أُحُبَّكِ يا أوليسا. أُحبك من زمان، حباً جارفاً، لكن لا تقبليني أكثر... أشعر بالخور، ورأسي يدور، ولا أكفل نفسي...

- لا تخف، ولا تفكر بأي شيء آخر... اليوم هو يومنا، ولن يسلبنا أحد إياه.

انسكبت هذه الليلة كلها في حكاية ساحرة آسرة. طلع الهلال، فأنار ضياؤه الغابة، بشكل عجيب، مبرقش وغامض، ورقد وسط الظلمة بقعاً غير منتظمة، سوداء، ضاربة إلى الزرقة، شاحبة، على الجذوع الخشنة، على الأغصان الملتوية. وعلى الطحلب اللين، كما سجاد القطيفة. وبرزت جذوع البتولا الرقيقة، بيضاء، بحدة ووضوح، وبدا وكأن ستراً فضية شفافة رقيقة ملقاة على أوراقها النادرة. ولم يكن الضوء ينفذ إلى بعض الأماكن، تحت المظلة الكثيفة لأغصان الصنوبر، حيث يقبع الظلام الدامس المطبق، فقط في وسطه ينزلق،

من مكان ما، شعاع، فينير فجأةً رتل الأشجار الطويل، ويلقي على الأرض درباً ضيقاً منتظماً - في غاية الإشراق والأناقة والروعة، لكأنه الممر، الذي زينته الجنيات احتفالاً بمسيرة أوبيرون وتيتانيا(١)، وسرنا متعانقين في أحضان هذه الأسطورة الحية الباسمة، دون أن ننبس ببنت شفة، وقد أسكرتنا سعادتنا، وهدوء الغابة الرهيب.

فجأة تذكرت أوليسا:

- لقد نسيت تماماً يا عزيزي، أَنَّ عليك أَنَّ تسرع إلى البيت، يا لي من سيئة. لقد تعافيتَ للتَوّ، بينما أبقيتك في الغابة حتى الآن.

احتضنتها، ورفعت المنديل عن شعرها الأسود الفاحم، وانحنيت على أذنها، وسألت بصوت، بالكاد يسمع:

- ألست آسفة يا أوليسا؟ ألست نادمة؟

وهزت رأسها ببطء:

- كلا، كلا... مهما حدث فيما بعد، فلن آسف. إنني في غاية السرور.

- وهل سيحدث شيء ما من كل بد؟

لاح في عينيها انعكاسٌ للرُّعب الغامض، المألوف لدي:

- أوه بلى، لاشك في ذلك... ألا تذكر أَنَّني حدثتك عن بنت السباتي؟ إنَّ بنت السباتي تلك، هي أنا. وإنَّ الكارثة ستحلُّ بي، كما كشف الورق... هل تعرف أنّني أردت أن أرجوك أن تنقطع عن القدوم إلينا

---

(١) قمران تابعان لأورانوس. [المترجم].

بتاتاً. وفي هذا الوقت بالذات أصابك المرض، ولم أرك قرابة نصف شهر... لقد تملكني شوقٌ عارمٌ إليك، واستولى عليّ الحزن، إلى حدّ أنّني، على ما أعتقد، كنت مستعدة لأنْ أعطي كل شيء في الدنيا مقابل أن أبقى معك دقيقة أخرى... وحينذاك اتخذت قراري، وقلت لنفسي: «ليكن ما يكون، لكنني لن أمنح سعادتي لأحد...».

فقلت، وأنا ألامس صدغها بشفتي:

- هذا صحيح يا أوليسا. وهذا ما حدث لي أنا أيضاً. حتى ذلك الحين لم أكن أعرف أنّني أحبك، إلى أن فارقتك. ليس عبثاً أن يقال: إنَّ الفراق بالنسبة إلى الحب هو كالنسيم بالنسبة إلى النار: فهو يطفئ الحبَّ الصغير، أما الكبير فيؤجّجه، بشكل أقوى.

وسألت أوليسا باهتمام:

- ماذا قلت؟ أعد ما قلته، من فضلك.

ومن جديد كررت عليها هذا القول المأثور، دون أن أعرف من هو صاحبه. استغرقت أوليسا في التفكير. ومن خلال حركة شفتيها، أدركت أنها تكرر كلماتي.

تمعنَّت عن قرب في وجهها الشاحب، المرسل إلى الخلف، وعينيها السوداوين الكبيرتين، بما فيهما من بقع قمرية متلألئة وساطعة - وعلى حين غرة زحف إلى روحي، على شكل برودة مفاجئة، حدس غامض، بالفاجعة الوشيكة.

-١١-

استمرت حكاية حبنا الساحرة، الساذجة، قرابة شهر كامل، وحتى الآن لا تزال تنبض بالحياة في روحي، تلك الأمسيات المتوهجة، والصبحيات الندية، الفواحة بروائح سوسن الغابة والعسل، وزقزقة العصافير الرنانة، المفعمة بالنضارة، تلك النهارات الحزيرانية الحارة، الساجية والخاملة، كلُّ ذلك مقرونٌ بصورة أوليسا الرائعة... وفي تلك الفترة لم يتحرك في روحي، قيد أنملة مرة واحدة، لا العجز ولا التعب، ولا الشغف الدائم بحياة التسكع. وكنت، كما الإله الوثني، أو كما الحيوان الشاب القوي، أتمتع بالضوء والدفء، وحب الحياة الواعي، والحب الهادئ القوي والشهواني.

بعد شفائي، أصبحت العجوز مانويليخا متذمرة بشكل لا يطاق، وأخذت تستقبلني بعداوة صريحة، وحينما أكون جالساً في البيت، لا تكف عن تحريك القدور في الموقد، بكل صخب وضراوة، إلى حد أننا أصبحنا، أنا وأوليسا، نفضل أن نلتقي كل مساء في الغابة... وكانت روعة الغابة الخضراء السنية، تزين حبنا المطمئن، كما الإطار المرصّع.

يوماً بعد يوم أخذت أكتشف، بدهشة متزايدة، أَنَّ أوليسا، هذه الفتاة، التي ترعرعت في أحضان الغابة، والتي لا تجيد القراءة حتى، تتحلى، في الكثير من مناحي الحياة، بتهذيب مرهف، ولباقة فطرية مميزة. ثمة في الحب، بمعناه السمج المباشر، جوانب فظيعة، تثير العذاب والخجل، لدى ذوي الطبائع الفنية العصبية. بيد أن أوليسا كانت تجيد تجنبها بعفة ساذجة، إلى درجة أن صفو علاقتنا لم تعكره أية مقارنة سيئة، ولا أية لحظة وقحة.

في غضون ذلك راح موعد رحيلي يقترب. والحقيقة أن كل أموري، المتعلقة بالعمل، في بيربرود أنجزت، لكنني رحت أؤجل عودتي إلى المدينة، عن قصد. حتى الآن لم أتحدث عن ذلك لأوليسا، بكلمة واحدة، خوفاً حتى من تصور ردة فعلها على نبأ ضرورة رحيلي. وإجمالاً فقد وجدت نفسي في موقف حرج. كانت العادة قد ضربت فيَّ جذوراً عميقة جداً، وأصبحت رؤية أوليسا يومياً، وسماعُ صوتها الحبيب، وضحكها الرنان، والإحساس بروعة ونعومة حنانها، أكثر من ضرورة بالنسبة إليّ. وفي الأيام النادرة، حين يحول الطقس الماطر دون لقائنا، كنت أشعر بالضياع، لكأنني حرمت من الشيء الأساسي، بالغ الأهمية في حياتي. كل عمل يبدو لي مملاً، زائداً، وبكل كياني أروح أهفو إلى الغابة، إلى الدفء، إلى النور، إلى وجه أوليسا، الحبيب المألوف.

أخذت فكرة الزواج بأوليسا تتبادر إلى ذهني بشكل متكرر. في البداية اقتصر الأمر على أنها كانت تبدو لي أحياناً ممكنة، عند الضرورة القصوى، لخاتمة نزيهة لعلاقاتنا. ظرف واحد فقط ظل يخيفني، ويوقفني: لم أستطيع حتى أن أتصوَّر كيف ستبدو أوليسا في فستان «عالموضة»، وهي في غرفة الضيوف، تتجاذب أطراف الحديث مع زوجات زملائي في العمل، وقد انتزعت من هذا الإطار السحري للغابة العتيقة، الزاخرة بالخرافات والقوى الغامضة؟

لكن كلما اقترب موعد رحيلي، تملكني رعب متفاقم من الوحدة والشوق. يوماً بعد يوم أخذ قرار الزواج يترسخ في روحي، وفي النهاية لم أعد أرى فيه تحدياً وقحاً للمجتمع. ورحت أواسي نفسي: «إن أناساً جيدين وعلماء يتزوجون بالخياطات والوصيفات، ويعيشون بشكل رائع، وحتى نهاية حياتهم يباركون القدر، الذي دفعهم إلى اتخاذ مثل هذا القرار، ولن أكون أتعس حظاً من الآخرين في الواقع».

ذات مرة، في أواسط حزيران، وقبيل المساء، وقفت، على عادتي، بانتظار أوليسا، عند منعطف الدرب الحرجي الضيق، بين أجمات العضة المزهرة. حتى من بعيد، تعرفت على وقع خطواتها، الخفيف السريع.

وقالت أوليسا، وهي تعانقني، وتتنفس بصعوبة:

- مرحباً يا عزيزي. لا ريب أنَّك انتظرت طويلاً؟ أما أنا فبالكاد تملصت... كنت أتقاتل مع جدتي، كل هذا الوقت.

- ألم تهدأ حتى الآن؟

- أبداً. فهي تقول: «سوف تضيعين بسبب... سوف يتسلَّى معك، حتى الشبع، ثم يرميك. إنَّه لا يحبَّك أبداً..».

- هل تقصدني أنا بذلك؟

- أجل يا عزيزي... لكنني مع هذا لا أصدِّق كلمة واحدة مما تقول.

- وهل تعرف كل شيء؟

- لن أخبرها على الأرجح... أظن أنَّها تعرف. وإجمالاً فأنا لا أتحدث بهذا الشأن - إنَّها تُخمِّن بنفسها. ثم ما الداعي إلى التفكير بذلك... لنذهب.

قطفتْ عسلوجاً من العضة، يحمل عشاً كثيفاً من الأزهار البيضاء، وغرزته في شعرها. سرنا ببطء عبر الدرب، المتورِّد قليلاً، بسبب الشمس الغاربة.

الليل الفائت كنت قد قررت أن أصارحها في هذه الأمسية، مهما كان الثمن، لكن وجلاً غريباً أثقل لساني. وفكرت: هل ستصدقني أوليسا، إذا ما أخبرتها عن رحيلي، وعن الزواج؟ ألن يبدو لها أنني، بعرضي هذا، إنما أسعى إلى تخفيف الصدمة، للضربة المفاجئة، وقلت في نفسي: «ما إن نصل شجرة القيقب

تلك، ذات الجذع المقشر، حتى أباشرَ في مفاتحتها». أصبحنا على سوية القيقب، فأخذت نفساً، وقد شحب وجهي اضطراباً، وهممت بمفاتحتها. وفجأة راحت جسارتي تضعف، إلى أن انتهت بخفقان قلبي بشكل مضطرب، ودبت البرودة في فمي. وبعد عدة دقائق، قلت في نفسي: «إنَّ الرقم سبعة وعشرين هو رقم سعدي، سوف أعد حتى الرقم سبعة وعشرين، وحينها...». وشرعت أعد في عقلي، وحين وصلت إلى الرقم سبعة وعشرين، أحسست أن العزم لم ينضج لديَّ بعد. فقلت لنفسي: «كلا، الأفضل أن استمر في العد حتى الرقم ستين - وهذا يشكل دقيقة كاملة - وحينها من كلِّ بُدّ. من كل بد...»

وسألت أوليسا فجأة:

ـ ماذا بك اليوم؟ إِنَّك تفكّر في أمر سيء، فما الذي حدث لك؟

عندها انحلَّت عقدةُ لساني، لكنَّني بدأتُ الحديث بلهجةٍ تدعو للاشمئزاز، حتى بالنسبة إليّ، أنا نفسي، وبلا مبالاة متكلّفة مصطنعة، لكأنَّ الحديث يدور حول موضوع في منتهى التفاهة.

- فعلاً، هناك مشكلة صغيرة... إنَّ ظنَّك في محله يا أوليسا... الواقع أَنَّ عملي هنا قد انتهى، والرئاسة تستدعيني إلى المدينة.

ألقيت على أوليسا نظرة جانبية خاطفة، فرأيت كيف فرت الحمرة عن وجهها، وكيف ارتعشت شفتاها، لكنها لم تنبس ببنت شفة. مضت عدة دقائق، وأنا أسير بجانبها صامتاً، والجنادب تصرخ بين الأعشاب بصوت عال، ومن مكان بعيد تناهى صياح الكركي الحاد متوتراً ورتيباً.

وأردفت:

- أنت نفسك تدركين بالطبع يا أوليسا أنَّ بقائي هنا غير لائق، ولا يوجد مكان أبقى فيه، وفي خاتمة المطاف لا يمكن إهمال العمل.

- كلا... طيب... هذا شيء مفروغ منه - ردَّت أوليسا، بهدوءٍ وبصوت خافت، لا حياة فيه، مما أثار خوفي، وأضافت: طالما أنه العمل، فلا بد من الرحيل... بالطبع...

توقفتْ لدى الشجرة، أسندت ظهرها إلى جذعها، وهي شاحبة، بيدين تتدليان على طول جسمها، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة تذلل معذبة. أثار شحوبها هلعي، فاندفعت نحوها، وضغطت على يديها بقوة:

- أوليسا... ماذا بك؟ أوليسا... حبيبتي...

- لا شيء... اعذرني... سوف يزول هذا. هكذا... لقد دخت...

تمالكت نفسها، وسارت إلى الأمام، دون أن تسحب يدها من يدي. وقلت لها معاتباً:

- لقد أسأت بي الظن الآن يا أوليسا. عيب عليك. هل يعقل أَنَّك تعتقدين، أنت أيضاً، أَنَّه بوسعي أن أسافر، وأتخلى عنك؟ كلا، يا عزيزتي. ولهذا السبب بدأت هذا الحديث لأنني أريد الذهاب، هذا اليوم بالذات، إلى جدتك، وأخبرها أنك ستصبحين زوجتي.

وعلى غير ما توقعت تماماً، فإنّ كلامي لم يثر دهشة أوليسا، إلا بالكاد، فقد هزَّت رأسها ببطء وأسى:

- زوجتك؟ كلا يا فانيتشكا[1] العزيز، هذا مستحيل.

---

(١) صيغة التدليل من اسم إيفان. [المترجم]

- لكن ما السبب يا أوليسا؟ ما السبب؟

- كلا، كلا... أنت نفسك تدرك أَنَّ مجرَّد التفكير بذلك مضحك. فأية زوجة أنا، في الواقع؟ أنت سيد، ذكيٌّ، متعلّم، وأنا من أكون؟ حتى القراءة لا أجيدها، ولا أعرف كيف أمشي... لن أجرّ عليك إلا الخجل...

واعترضت بحرارة:

- كل هذا حماقات يا أوليسا. أنت نفسك لن تتعرفي على نفسك، بعد نصف عام. حتى أنك لا تدركين مدى ما تتحلين به من عقل فطري راجح، ومن قوة الملاحظة. سوف نقرأ معاً كثيراً من الكتب الجيدة، ونتعرف على أناس طيبين أذكياء، وسوف نرى معاً الدنيا الواسعة كلها يا أوليسا... وحتى الشيخوخة، حتى الموت نفسه، سنبقى نسير معاً، ويدانا متشابكتان، على غرار ما نسير الآن، ولن أشعر بالخجل بك، بل بالاعتزاز، وسوف أكون شاكراً لك...

ردَّت أوليسا على كلامي المتحمّس بأن ضغطت على يدي بامتنان، لكنَّها أَصرَّت على موقفها.

- وهل يقتصر الأمر على ذلك وحده؟... ربما لا تعرف حتى الآن؟... لم يسبق لي أن قلت لك... فليس لدي أب... أنا غير شرعية...

- توقفي يا أوليسا... هذا لا يهمَّني مثقال ذرَّة. ما حاجتي إلى أهلك، ما دمت بالنسبة إليّ أغلى من الأب والأم، أغلى من العالم بأكمله؟ كلا، كل هذا تفاهات، كل هذا حجج فارغة...

أسندت أوليسا كتفها إلى كتفي، بحنان هادئ مطيع، وقالت:

- يا عزيزي... الأفضل لو أنك لم تبدأ الحديث حول هذا... إنَّك شاب، حرٌّ... هل يعقل أن لدي من العزيمة ما يكفي لأن أربطك من يديك ورجليك، مدى الحياة... طيب، وإذا ما أعجبتك أخرى، فيما بعد؟ حينها سوف تكرهني، وسوف تلعن ذلك اليوم، وتلك الساعة، التي وافقتُ فيها على الزواج منك. لا تغضب يا عزيزي- قالت بتوسل، حين قرأت على وجهي أنَّ هذا الكلام لا يروق لي - لا أريد الإساءة إليك، فأنا إنما أفكر بسعادتك فقط. وأخيراً لقد نسيت جدتي. طيب احكم بنفسك، هل سيكون جيداً من جانبي أن أتركها وحدها؟

- طيب... سوف نعثر للجدة على مكان لدينا. (أعترف أن الفكرة عن الجدة قد صدمتني)، وإن لم ترغب في العيش معنا، ففي كل مدينة توجد دور... إنها تعرف باسم بيوت الإحسان، حيث يتمتع العجائز مثلها بالطمأنينة والرعاية...

- كلا، ماذا تقول؟ إنها لن تغادر الغابة أبداً، فهي تخاف الناس.

- طيب، جدي أنتِ مخرجاً مناسباً يا أوليسا. سيكون عليك أن تختاري بيني وبين جدتك. لكن يجب أنَّ تعرفي شيئاً واحداً - أن حياتي أيضاً سوف تكون بدونك لا تطاق.

وبحنان عميق قالت أوليسا:

- يا شموستي. شكراً لك على كلامك هذا... لقد دفَّأتَ قلبي به... ومع هذا لن أتزوج منك... الأفضل أن أذهب معك هكذا، إن لم تطردني... لكن لا تتسرَّع من فضلك، لا تستعجلني. أمهلني يومين، سوف أدرس الأمر جيداً - ثم إنه لا بَّد من التحدث إلى الجدة.

وسألتُ، وقد برقت في رأسي فكرة جديدة:

- اسمعي يا أوليسا، ربما أنك، مرة أخرى... تخافين الكنيسة؟

على الأرجح أنَّه كان ينبغي بدء الحديث بهذا السؤال. ففي كل يوم تقريباً كنت أتجادل مع أوليسا، محاولاً تغيير قناعتها بأن لعنة تثقل كاهل عائلتها، إلى جانب تمتعها بالقوى السحرية. والواقع أن كل متنور روسي لا يخلو من بعض عقدة النقد، إنها في دمنا، وقد غرسها فينا الأدب الروائي في العشر السنوات الأخيرة. ومن يدري؟ - لو أَنَّ أوليسا كانت تؤمن بعمق، وتلتزم بالصيام، ولا تفوت صلاة - فمن المحتمل أنني كنت سأسخر من تديّنها (لكن إلى حد ما، لأنني إنسان مؤمن دائماً)، وأعمل على تطوير حب الاستطلاع النقدي لديها. لكنها كانت تعتنق، بشكل راسخ وبقناعة ساذجة، التعامل مع القوى الظلامية، والنفور من الله، الذي تخاف مجرد الحديث عنه.

ذهبت محاولاتي زعزعة وسواس أوليسا أدراج الرياح، فقد تحطَّمت كلُّ حججي المنطقية، وكل سخرياتي اللاذعة والوقحة أحياناً، على صخرة ثِقتها المذعنِة بموهبتها الحتميَّةِ الغامضة.

وكرَّرتُ سؤالي:

- هل تخافين الكنيسة يا أوليسا؟

احنَت رأسها بصمت.

وتابعت بحماسة متزايدة:

- تعتقدين أَنَّ الرب لن يقبلك، وأنه لن يسعك برحمته، وهو الذي، يأتمر بأمره ملايين الملائكة، وقد نزل، مع ذلك إلى الأرض، وتعرض لميتة

فظيعة مخزية، من أجل إنقاذ جميع الناس؟ ذاك الذي لم يزدر توبة المرأة الساقطة، ووعد الحرامي - القاتل أنه سيكون برفقته في الجنة اليوم؟...

كل هذا لم يكن بالشيء الجديد لأوليسا في تفسيراتي. لكنها هذه المرة لم ترغب حتى بمجرد الإصغاء لذلك. وبحركة سريعة، نزعت منديلها، ودعكته، ثم رمت به في وجهي، وبدأنا اللعب. رحت أحاول انتزاع زهرة العضة منها. وأثناء مقاومتها، وقعت أرضاً، ورمتني معها، وهي تضحك بسرور، وتقدم لي شفتيها الرطبتين الجذابتين، المفترتين، بسبب سرعة تنفسها...

وبعد أن افترقنا، في ساعة متأخرة من الليل، وابتعدنا لمسافة كبيرة، سمعت فجأة صوت أوليسا ورائي:

- فانيتشكا! انتظر لحظة... سأقول لك شيئاً.

التفتُّ، ومشيت للقائها، ركضت أوليسا نحوي على عَجَل. كان الهلال الفضي المسنن الرقيق للقمر، الفتي يقف في السماء، وفي ضوئه الشاحب رأيت أن عيني أوليسا مغرورقتان بالدموع الكبيرة، التي لم تنسكب بعد، وسألتها باضطراب:

- ماذا جرى يا أوليسا؟

اختطفت يديَّ، وراحت تلثمها، واحدة إثر أخرى، وقالت بصوت مرتجف:

- كم أنت طيب... يا عزيزي. كم أنت رائع. للتو فكرت، وأنا أمشي، كم تحبني... هل تعلم أنني أتوق كثيراً لأن أقوم بشيء يسرُّك كثيراً، كثيراً.

- أوليسا يا فتاتي الرائعة، اهدئي...

وتابعت:

- قل لي، هل ستكون مسروراً، إذا ما ذهبت إلى الكنيسة ذات مرة؟ لكن أصدقني القول، قل بصراحة.

رحت أفكر. فجأة خطرت لي فكرة مشؤومة: ألن يؤدي ذلك إلى مصيبة في المستقبل؟

- لماذا أنت ساكت؟ قل بسرعة، هل سيسرك ذلك، أم أَنَّ الأمر سيان، بالنسبة إليك؟

وبدأت متلعثماً:

- كيف أقول لك؟ حسناً، بلى، على الأرجح أَنَّ من شأن ذلك أن يسرني. لقد سبق أن قلت لك، أكثر من مرة، إنَّ بوسع الرجل أن لا يؤمن، أن بشك، وحتى أن يهزأ أخيراً. لكن المرأة... على المرأة أن تكون مؤمنة، دون نقاش. كنت دائماً أحس أن ثمة شيئاً ما مؤثراً، أنثوياً ورائعاً في تلك الثقة، التي تضع بها نفسها تحت حماية الرب.

لذت بالصمت. ولم ترد أوليسا أيضاً، وقد اختبأت برأسها قرب صدري.

واستفسرتُ بفضول:

- ولماذا تسألين عن هذا؟

انتفضت فجأة، وقالت:

- هكذا... سألت ببساطة... لا تول ذلك اهتماماً. طيب إلى اللقاء، يا عزيزي. تعال غداً.

واختفت. بعد ذلك حدقت طويلاً في الظلام، وأصغيت إلى وقع خطاها السريعة والمبتعدة عني. على حين غرة تملكني هول حدس مفاجئ، واستحوذت علي رغبة عارمة في الجري خلف أوليسا، في اللحاق بها، لكي أرجوها، أتوسل إليها، وحتى أطالبها، إن دعت الحاجة، أن لا تذهب إلى الكنيسة، لكنني كبت هذه السورة المفاجئة، حتى أنني، ما زلت أذكر كيف تابعت طريقي، وأنا أقول بصوت عال:

- يبدو يا عزيزي فانيتشكا، أنك أنت أيضاً أُصبْتَ بعدوى الوسواس.

أوي، يا إلهي. لماذا لم أصغ آنذاك لما حدثني به، بشكل مبهم، قلبي، الذي لا يخطئ أبداً في ظنونه، المكنونة والسريعة، وهذا ما أؤمن به الآن، دون ريب.

-١٢-

صادف اليوم التالي، الذي أعقب هذا اللقاء، عيد الثالوث المقدس، الذي حل هذا العام في يوم القديس تيموفي.

من الناحية الكنسية تعتبر قرية بيربرود تابعة. فعلى الرغم من أَنَّ لديها كنيستها، فإنه لم يكن لديها خوريها الخاص بها، بل كان يأتي إليها بين الفينة والأخرى، في الصوم وفي الأعياد الكبرى، خوري قرية فولوشكا.

وفي هذا اليوم اضطررت للسفر إلى البلدة المجاورة لأمور تتعلق بالوظيفة. توجَّهت إلى هناك، راكباً حصاني، حوالي الساعة الثامنة، في برودة الصباح المنعشة. ومن أجل التنقل، كنت قد اشتريت، منذ عهد بعيد، مهراً صغيراً، لا يتجاوز السادسة - السابعة من عمره، ويتحدر من سلالة محلية،

تفتقر إلى الجمال، لكنه حظيَ لدى صاحبه السابق، مسَّاح الأراضي، بكثير من العناية والرعاية.

كان الحصان يحمل اسم «تارانتشيك». ولقد تعلقت بقوة بهذا الحيوان اللطيف، ذي القوائم الدقيقة الرقيقة والقوية، واللبدة الشعثاء، التي تبرز من تحتها عيناه الناريتان، وذي الشفتين الصلبتين المزمومتين بحيوية. أما لونه ففي منتهى الندرة، ومثير للضحك. فهو رمادي، جردوني، وعلى كفله فقط تطالعك بقع مبرقشه، بيضاء وسوداء.

اضطررت للمرور بالقرية كلها. كانت الساحة الخضراء الكبيرة، الممتدة من الكنيسة إلى الحانة، مغطاة تماماً بصفوف العربات، التي جاء فيها فلاحو القرى المجاورة: فولوشا، زولنا وبيتشالوفكا، برفقة زوجاتهم وأولادهم، للاحتفال بالعيد. وبين العربات كان الناس يروحون ويجيئون. وعلى الرغم من الوقت المبكر، والقرارات الصارمة، فقد كان بالإمكان أن ترى أَنَّ البعض منهم سكارى (كان سْرول، بائع الخمور السابق، يبيع الفودكا سراً في الأعياد، وفي ساعات الليل). كان الهواء ساكناً، والجو خانقاً، حاراً ورطباً، مما ينذر بأن النهار سيكون حاراً، بشكل لا يطاق. وبدت السماء المتوهجة، والملفعة تماماً بالغبار الفضي، خالية كلياً من الغيوم.

بعد إنجاز كل ما كان ينبغي إنجازه في البلدة، تناولت في نزل المسافرين طعامي على عجل، وهو عبارة عن كراكي محشوة، وشربت فوقها جعة عكرة، رديئة جداً، ثم قفلت، عائداً إلى البيت. لكنني، وأثناء مروري بدكان الحدادة، تذكرت أن حدوة القائمة اليسرى الأمامية لـ «تارانتشيك» رخوة، فتوقفت من أجل بيطرة الجواد. وقد استغرق ذلك قرابة ساعة ونصف، وهكذا، فحين اقتربت من أرباض بيربرود، كانت الساعة بين الرابعة والخامسة بعد الظهر.

وجدت الساحة تغص بالسكارى الصاخبين. وكان الزبن يملؤون ساحة الحانة ومدخلها، وهم يتدافعون فيما بينهم، واختلط فلاحو بيربرود بالغرباء، الجالسين على العشب، في ظل العربات. وأنى نظرت، لا ترَ إلا الرؤوس، المرتدة إلى الوراء، والزجاجات، المرفوعة عالياً. لم يكن قد بقي بينهم صاح واحد. لقد بلغ السكر الشامل الزبى، إلى حد أن الموجيك[1] أصبح يزيد من خمَّاره بشكل عاصف ومتباه. وأخذت كل حركاته تكتسب التلويح الضعيف والثقيل، وعلى سبيل المثال، فبدلاً من التلويح برأسه، علامة الإيجاب، تراه ينحني بكل جذعه، طاوياً ركبتيه، وفجأة يفقد توازنه، ويرجع القهقري عاجزاً. وترى الأولاد يلعبون، ويصرخون في المكان نفسه، بين أرجل الخيول، التي تمضغ القش بلا مبالاة. وفي مكان آخر ترى امرأة، بالكاد تقف على قدميها، تجر زوجها السكران جداً، والمعاند، من كمه، لتعيده إلى البيت، وهي تبكي، وتشتم... وفي ظل السياج جلست جمهرة غفيرة، حوالي عشرين رجلاً وامرأة، حول مغّنٍ أعمّى، كان صوته التينور الأخن، المقترن بالدندنة الرتيبة لآلته الموسيقية، يتردد بحدة وسط هدير الجمهور الصاخب. ومن بعيد تناهت إلى سمعي كلمات الـ «الدومكا»[2] المعروفة.

أوي طلع الفجر وخيم المساء

فوق بوتشايف

أوي طلع الجيش التركي

كما الطاعون الأسود

---

(١) الفلاح. [المترجم]

(٢) أغنية فولكلورية، اشتهرت في غرب أوكرانيا في القرن التاسع عشر. [المترجم]

وتتابع هذه الدومكا، فتقول إنه لما عجز الترك عن السيطرة على لافرا[1] باتشايفسكيا بالهجوم، قرروا اللجوء إلى الحيلة، ومن أجل ذلك عمدوا إلى إرسال شمعة ضخمة، محشوة بالبارود، هدية إلى الدير. جيء بالشمعة على اثني عشر زوجاً من البغال، وحين هَمَّ الرهبان الفرحون بإشعالها أمام أيقونة عذراء بوتشايف، تدخلت العناية الإلهية، وأفشلت هذه الخطة الشريرة.

في الحلم قيل للقارئ الشيخ

أن لا تُقبل تلك الشمعة

وأن تُخرج إلى الفلاة

وتقطع بالبلطات.

وها هم الرهبان

قد أخرجوها إلى الفلاة وراحوا يقطعونها

فتطايرت الخراطيش في شتى الاتجاهات

بدا وكأنَّ الهواء الساخن، بشكل لا يطاق، مُشبَعٌ كلُّه برائحة كريهة لخليط من الفودكا المحروقة، والبصل، والمعاطف، المصنوعة من فراء الضأن، والتبغ الثقيل، وتعرق الأجساد البشرية الوسخة. شققتُ طريقي بين الناس بحذر، وأنا بالكاد أستطيع كبحَ جماح تارانتشيك، الذي لا يكف عن تحريك رأسه، ولم يفتني أن النظرات الوقحة، الفضولية والعدائية كانت ترافقني من كل الجهات. وعلى غير العادة لم يرفع أي شخص «قبعته»، لكن بدا وكأن

---

(١) لافرا: كلمة إغريقية تطلق في روسيا على الأديرة، الخاصة بالرجال. **[المترجم]**

الضجيج خف لدى ظهوري. وعلى حين غرة ترددت وسط الجمهور تماماً، صرخة مخمورة، بحَّاء، لم أسمعها بوضوح، لكنها أثارت قهقهة مكبوتة. وراح صوت نسائي يهدئ ثائرة الصارخ بخوف:

- لا ترفع صوتك يا أحمق... لماذا تصرخ! قد يسمعك.

وتابع الموجيك بحماسة:

- وماذا يهمني، إذا ما سمع؟ فهل هو رئيسي؟ إنه فقط في الغابة لدى تلك...

تعلقت العبارة الطويلة المقززة، الفظيعة في الهواء، مقرونة بانفجار قهقهة مجنونة. وعلى جناح السرعة أدرت حصاني إلى الوراء، «وضغطت على مقبض الغدارة بتشنج، وقد تملكني ذلك الغضب المجنون، الذي لا يرى شيئاً، ولا يفكر بشيء، ولا يهاب شيئاً. وفجأة برقت في رأسي فكرة غريبة، مَرَضية، شجية»: «كل هذا سبق أن حدث في حياتي، لسنوات عديدة خلت. حينها كانت الشمس ترسل شواظها على هذا النحو... وعلى هذا النحو أيضاً كانت الساحة الشاسعة غارقة بالبشر الهائجين... وعلى هذا النحو عدت القهقرى، في نوبة من الغضب المسعور. لكن أين حدث ذلك؟ متى؟ متى؟...». أنزلت الغدارة، وانطلقت نحو البيت خبباً.

أخذ يارمولا، الذي خرج من المطبخ ببطء، الحصان مني، وقال بوقاحة:

- هناك، يا بانيتش، في غرفتك يجلس ناظر ضيعة مارينوفا.

خُيّل إلي أَنَّه يريد أن يضيف شيئاً آخر، مهما جداً، بالنسبة إليَّ، ومزعجاً، حتى أنّه خُيّل إليّ أنَّ تعبيراً من السخرية الحقودة والعجولة انزلق

على وجهه. تلكأت قليلاً في الباب، عن عمد، والتفتُّ نحو يارمولا بتحدٍ، لكنه لم يعد ينظر إلي، إنه يقود الحصان، الذي راح يمد عنقه إلى الأمام، وينقل قوائمه بحذر.

وجدت في غرفتي ناظر الضيعة المجاورة، نيكيتا نازاريتش ميشينكا. إنه في سترة رمادية، ذات تربيعات مغراء ضخمة، وبنطال ضيق، ذي لون أزرق فاتح، وربطة عنق حمراء نارية، شعره مفروق من الوسط، وتفوح منه رائحة الليلك الفارسي. ما إن رآني، حتى هَبَّ عن الكرسي، وشرع يخفق، لم ينحن، بل لكأنه ينقصف في حقوه، وابتسم ابتسامة كشفت عن اللثتين الصفراوين لكلا الحنكين.

وبقبق نيكيتا نازاريتش بأدب:

- يشرفني أن أحييك. يسرني لقاؤك كثيراً... إنني أنتظرك هنا منذ القداس تماماً. لم أرك من زمان، حتى أنني اشتقت إليك. ما بالك لا تأتي إلينا؟ حتى أنَّ آنساتنا اشتقن إليك.

وعلى حين غرة، تملكته ذكرى مفاجئة، فراح يقهقه، قهقهة لا يمكن كبتها.

ثم هتف:

- سأخبرك الآن أَيَّ لهو حدث اليوم - ولم يصبر، فأطلق ضحكة، وهو يكاد يختنق - قه، قه، قه. ـ حتى أنني شعرت بالألم في خاصرتيَّ، من شدة الضحك...

وسألته بخشونة، دون إخفاء امتعاضي:

- ماذا تقصد؟ أي لهو؟

تابع نيكيتا نازاريتش حديثه، وهو لا يكف يقطعه برشقات من القهقهة:

- بعد القداس حدثت هنا فضيحة. فقد أمسكت صبايا بيريبرود... كلا، لا أستطيع تمالك نفسي، قسماً بالله... إذن صبايا بيريبرود أمسكن هنا، في الساحة، بساحرة... أقصد:أنهنَّ يعتبرنها ساحرة، بسبب جهلهن الفلاحي... وقد أوسعنها شتماً... وأردن أن يدهنها بالقطران، لكنها تملّصت منهنّ، بطريقة ما، وفرت...

برق هاجس مخيف في رأسي. انقضضت على الناظر، وفقدت السيطرة على نفسي، من شدة الاضطراب، فتشبثت بيدي بكتفه بقوة، وصرخت به، بصوت غاضب:

- ماذا تقول! هلا توقفت عن الصهيل، تباً لك. عن أية ساحرة تتحدث؟

فجأة توقف عن الضحك فوراً، وحملق فيّ بعينين مستديرتين خائفتين، وراح يغمغم بارتباك:

- أنا... أنا... لست أعرف حقاً. أظن أَنَّها صاموئيليخا... مانويليخا... ربما أنها... عفواً... ابنة مانويليخا. هذا ما ثرثر به الموجيك، لكنني، أعترف، لا أتذكر.

أرغمته على أن يخبرني بالترتيب عن كل ما رآه وسمعه. راح يتحدث بسخافة، بشكل غير مترابط، وبارتباك في سرد التفاصيل، وفي كل لحظة كنت أقاطعه بأسئلتي اللجوجة وصيحاتي القريبة من السباب. لم أفهم روايته إلا قليلاً، وفقط بعد مرور قرابة الشهرين، تمكنت من معرفة حقيقة ما جرى، استناداً إلى ما روته لي شاهدة عيان، وهي زوجة حارس الغابة الأميرية، التي حضرت القداس، في ذلك اليوم.

كان حدسي في مكانه. فقد تغلَّبت أوليسا على خوفها، وجاءت إلى الكنيسة. وعلى الرغم من أنها وصلت في منتصف القداس، ووقفت في مدخل الكنيسة، فإنَّ دخولها لفت انتباه جميع الفلاحين، الموجودين في الكنيسة تقريباً. وحتى نهاية القداس ظلت النسوة يتهامسن، ويتلفتن إلى الخلف.

بيد أن أوليسا وجدت في نفسها ما يكفي من القوة لأن تبقى حتى نهاية القداس. ربما لم تدرك المغزى الحقيقي لهذه النظرات العدائية، وربما أنها استخفت بها من باب الكبرياء. وحين خرجت من الكنيسة، ووصلت إلى السياج، أحاطت بها جمهرة من النسوة. وراح عددهن يزداد من دقيقة إلى أخرى، وأخذن يقتربن من أوليسا أكثر فأكثر. في البداية اكتفين بتفحص الفتاة العاجزة، وهي تتلفت بخوف، وبعد أن تفحصنها بصمت ووقاحة، توالت الإهانات والكلمات النابية والشتائم، المقترنة بالقهقهات، ولم تلبث الهتافات المنفردة أن امتزجت في لغط نسوان، لا يمكن أن تفهم منه شيئاً، لكنه زاد من هياج الجمهور. أكثر من مرة حاولت أوليسا شق طريقها وسط هذه الحلقة الحية الفظيعة، لكنهن كن يدفعنها باستمرار إلى الوسط. فجأة زعقت عجوز، بصوت عال، من خلف الجمهور: «ادهنوها بالقطران، هذه الغولة». (من المعروف أن الدهن بالقطران، حتى بوابة البيت، الذي تقطنه فتاة، كان يعتبر في مالوروسيا أكبر وصمة عار، لا تزول). وفي اللحظة نفسها تقريباً ظهر فوق رؤوس النسوان الهائجات دهان القطران مع الفرشاة، تتناقله الأيدي.

حينها، في نوبة من الغضب والفزع واليأس، انقضت أوليسا على أول من صادفتها من معذبيها بقوة، إلى درجة أنها رمتها أرضاً. وعلى الفور احتدم العراك على الأرض، واختلطت عشرات الأجساد في كتلة واحدة، لا

تكف عن الصراخ. لكن أوليسا استطاعت بمعجزة أن تتملص من هذه الشلة، وتجري بسرعة عبر الدرب - بدون منديل، بثياب ممزقة، وفي كثير من الأماكن كان جسمها العاري يبدو من تحتها. وفي أعقابها تطايرت الأحجار، مقترنة بالشتائم والقهقهات والصراخ. لكن لم يطاردها إلا قلة منهن، وحتى هؤلاء لم يلبثن أن توقفن... أما أوليسا فتوقفت، بعد أن ابتعدت قرابة الخمسين خطوة، والتفتت نحو الجمهور الهائج بوجهها الشاحب، المخمش، الملطخ بالدم، وصاحت بصوت عال، بحيث سمع جميع من في الساحة قولها:

- طيب... سوف أجعلكم تذكرون هذا. سوف تندمون على ذلك كثيراً.

وكما أخبرتني شاهدة العيان تلك، فيما بعد، فإن هذا التهديد كان مفعماً بالكراهية، وتردد بلهجة حاسمة نبوئية، إلى حد أَنَّ الجمهور كله بدا وكأن على رؤوسه الطير، لكن للحظة واحدة فقط، لأن انفجاراً جديداً من الشتائم انطلق في الحال.

أكرر أنني لم أعرف كثيراً من تفاصيل هذه الحادثة، إلا بعد ذلك بزمن طويل. لم أجد من القوة والصبر لسماع رواية ميشينكا حتى النهاية. فجأة تذكرت أن يارمولا لم يلحق بعد، على الأرجح، رفع السرج عن الحصان، ودون أن أقول كلمة واحدة للناظر المذهول، خرجت إلى الباحة على عجل. وبالفعل رأيت يارمولا لا يزال يمشي بالحصان على طول السياج. لجمت الحصان على جناح السرعة، وشددت حزام السرج، ثم انطلقت إلى الغابة، متجنباً المرور من جديد بين جمهور السكارى.

-١٣-

يستحيل وصف حالتي على مدى رمحي الجنوني، ولدقائق نسيت تماماً إلى أين أنا منطلق، ولأي سبب، ولم يبق إلا شعور غامض بحدوث ما لا تحمد عقباه، شيء غير معقول وفظيع - كان شعوراً شبيهاً بالهلع الثقيل، الذي لا سبب له، الذي يتملك الإنسان أحياناً في كابوس الحمى. وفي الوقت نفسه - ويا للغرابة، ظل يتردد في رأسي، على إيقاع وقع حوافر الحصان، صوت المغني الأعمى الأخن والمنهك:

أوي طلع الجيش التركي

كما الطاعون الأسود...

ما إن وصلت الدرب الضيّق، المؤدي مباشرة إلى بيت مانويليخا، حتى ترجلت عن تارانتشيك، الذي كان الزبد الكثيف يبرز على أطراف حلسه(١)، وفي تلك الأماكن، التي يحتك فيها جسمه بالعدة، على شكل كتل بيضاء، وقدته من الرسن. وبسبب الحر الشديد والجري السريع، راح الدم يضج في رأسي، كما لو أن مضخة عملاقة لا تكف تضغط عليه، دون توقف.

دخلت الكوخ، بعد أن عقلت الفرس إلى السياج، المصنوع من الأغصان المجدولة. في البداية تراءى لي أن أوليسا ليست في البيت. فشعرت بالبرودة تدب في جسمي وفي فمي، من الخوف، لكنني رأيتها بعد دقيقة، راقدة في السرير، ووجهها إلى الجدار، وقد خبأت رأسها بين الوسائد. لم تلتفت حتى إلى الضجة، التي أحدثها فتح الباب.

---

(١) الحلس: كل ما يوضع على ظهر الدابة، تحت السرج، لحمايته من التعرق والاحتكاك. **[المترجم]**.

أما مانويليخا، الجالسة بجوارها، على الأرض، فقد وقفت على قدميها بصعوبة، ولوحت بيديها علي؛ ثم همست مهددة:

- هس! لا تصخب أيها اللعين.

ثم اقتربت مني، حتى كادت تلتصق بي، وحدقت في عيني مباشرة، بعينيها الباردتين الباهتتين، وفحت بشراسة:

ـ ماذا؟ هل نلت مرادك يا عزيزي؟

فاعترضت بقسوة:

- اسمعي يا ختيارة. ليس هذا وقت المحاسبة والتوبيخ، ماذا بأوليسا؟

- هس... لا تصدر صوتاً. إنَّ أوليسا ترقد، غائبة عن الوعي، هذا ما بها... لو أنك لم تتدخل فيما لا يعنيك، ولم تثرثر للفتاة بالتفاهات، إذاً لما حدث ما حدث. وأنا الحمقاء، كنت أنظر، أتغاضى... علماً أن قلبي حدثني بوقوع المصيبة... حدثني بالسوء، منذ ذلك اليوم، الذي اقتحمت فيه بيتنا، بالقوة تقريباً. ماذا؟

وفجأة انقضّت عليَّ العجوز بوجه مشوه من الكراهية:

- ماذا؟ هل تنكر أنك أنت من دفعها للذهاب إلى الكنيسة؟ ألست أنت أيها الولد اللعين؟ لا تكذب، ولا تبصبص بذيلك الثعلبي أيها الملعون، ما هو غرضك من استدراجها إلى الكنيسة.

- لم أستدرجها يا جدة... أقسم لك. هي نفسها أرادت ذلك.

وقالت العجوز، وهي تضرب كفاً بكف:

- آخ يا مصيبتي، يا مصيبتي. لقد جاءت من هناك راكضة، بوجه دام، وقميص ممزق... حاسرة الرأس... وراحت تتحدث عما جرى، وهي تقهقه تارة، وتبكي أخرى... كأنها في نوبة هستيريا... رقدت في الفراش... وهي لا تكف عن البكاء، ثم بدا لي أنها نامت. ولقد سررت، أنا الحمقاء، العجوز، ظناً مني أنَّ كل شيء سيزول بالنوم، وتتحسن. وإذ نظرت، ورأيت يدها تتدلى إلى الأسفل، خطر لي أن أرفعها، كي لا تصاب بالخدر... لامست يدها الحبيبة، وإذا بها ساخنة جداً... إذن لقد بدأت لديها الحمى... ظلت تتحدث قرابة ساعة، دون توقف، بسرعة، وبشكل حزين... للتو سكتت لدقيقة. ماذا فعلت؟ ماذا فعلت بها؟ - هتفت العجوز بدفق جديد من اليأس.

وعلى حين غَرَّةٍ تجمع وجهها البني في تصعيرة بكاء مريعة ومقززة، فقد تطاولت شفتاها، وتدلت أطرافهما نحو الأسفل، وتوترت كل عضلات وجهها، وراحت ترتجف، أما حاجباها فارتفعا نحو الأعلى، وتغضن جبينها بالتجاعيد العميقة، ومن عينيها راحت تتساقط بغزارة الدموع الكبيرة، كما حبات الحمص. وبعد أن أحاطت رأسها بيديها، ووضعت مرفقيها على الطاولة، شرعت تتأرجح إلى الخلف والأمام، بكل جسمها، وهي تنوح، بصوت ضعيف:

- آخ يا ابنتي، يا حفيدتي الحبيبة... أوخ كم أشعر بالمرارة، كم أشعر بالقرف...

وقاطعتُ مانويليخا بفظاظة:

- لا ترفعي صوتك يا عجوز. ستوقظينها.

لاذت العجوز بالصمت، لكنها ظلت تتأرجح إلى الخلف والأمام، والتصعيرة المريعة نفسها لم تفارق وجهها، بينما استمرت قطرات الدمع الكبيرة تتساقط على الطاولة.

انصرم نحو عشر دقائق على هذا النحو. كنت جالساً بجوار مانويليخا، أصغي بسأم إلى ذبابة ترتطم بزجاج النافذة، وهي تئز بشكل رتيب ومتقطع.

وعلى حين غرة تردد صوت أوليسا الواهن، الذي بالكاد يسمع:

- جدتي! مَن عندنا يا جدتي؟

ودبَّت العجوز نحو السرير على عجل، وعادت إلى نواحها فوراً:

- أوخ يا حفيدتي يا حـ - بي - بتي. أوخ كم أشعر بالمرارة، وأنا العـ - جوز، كم أشعر بالضيق...

وقالت أوليسا بصوت شاك، مفعم بالتوسل والمعاناة:

- هلا توقفت يا جدتي! من عندنا في البيت؟

بكل حذر، دنوت من السرير، على رؤوس أصابعي، يراودني ذلك الوعي المحرج والمذنب، بالصحة والخشونة، الذي يراودك دائماً بجانب المريض، وقلت لها، بصوت منخفض:

- هذا أنا يا أوليسا. للتو وصلت من القرية راكباً... لقد أمضيت الصباح كله في المدينة... لست على ما يرام يا أوليسا؟

دون أن تبعد رأسها عن الوسادة، مدت يدها العارية إلى الخلف، كأنها تبحث عن شيء في الهواء، فهمت هذه الحركة، وأخذت يدها الساخنة بين يدي. بقعتان زرقاوان كبيرتان - واحدة فوق الرسغ، والأخرى فوق المرفق - برزتا بشكل حاد على بشرتها البيضاء الناعمة.

وقالت أوليسا ببطء، وهي تجد صعوبة في فصل الكلمات بعضها عن بعضٍ:

- يا عزيزي. كم أتوق للنظر إليك... لكنني لا أستطيع... فقد شوهنني تماماً... ألا تذكر... كم كان وجهي... يعجبك؟ أكان يعجبك حقاً يا عزيزي؟ وكم كنت مسرورة بذلك دائماً... أما الآن فسوف تشعر بالاشمئزاز... من النظر إلي... وهكذا... فإنني... لا أريد...

وانحنيت، ثم همست في أذنها مباشرة:

- أوليسا، سامحيني.

ضغطت يدها الملتهبة يدي طويلاً، وبقوة:

- ماذا تقول؟... ماذا تقول يا حبيبي؟... ألا تخجل من الحديث عن هذا. ما هو ذنبك هنا؟ أنا وحدي الحمقاء... لماذا حشرت نفسي... في الواقع؟ كلا يا شميستي، لا ذنب لك...

- اسمحي لي يا أوليسا... لكن عديني في البداية أنك ستسمحين...

- أعدك يا عزيزي... إن كل ما تريده...

- اسمحي لي من فضلك أن أبعث في طلب الطبيب... أرجوك، بوسعك، إن أردت، أن لا تنفذي أي شيء، مما يأمرك به. لكن هلا وافقت على ذلك، من أجلي يا أوليسا.

- أوخ يا حبيبي... لقد أوقعت بي. كلا، الأفضل أن تسمح لي أن لا ألتزم بوعدي. فحتى لو كنت مريضة فعلاً، وأحتضر، لما سمحت للطبيب بعلاجي. وهل أنا مريضة؟ الآن كل ما في الأمر أن ما جرى لي

هو بسبب الهلع، وسوف يزول بحلول المساء. وإن لم يزل، ستعطيني جدتي منقوع سوسن الغابة، أو تغلي لي بعض توت العليق مع الشاي. فما الداعي للطبيب. إنك أنت طبيبي الأفضل. ها أنت قد جئت، فتحسنت كثيراً... آخ، شيء واحد يضايقني: بودي أن ألقي عليك، ولو نظرة واحدة، لكنني خائفة...

وبجهد ناعم، أبعدت رأسها عن الوسادة. كان وجه أوليسا يتوهج بحمرة الحمى، وعيناها الداكنتان تتألقان بشكل ساطع، إلى درجة غير طبيعية، أما شفتاها فترتجفان بعصبية. كانت الخدوش الحمراء الطويلة تخدّد جبينها وخديها وعنقها، والرضوض الداكنة تبدو على جبينها، وتحت عينيها.

راحت أوليسا تتوسل همساً، وهي تحاول إغلاق عينيَّ براحة يدها:

- لا تنظر إلي... أرجوك... فأنا دميمة الآن.

طفح قلبي بالرثاء لها، انحنيت بشفتي على يد أوليسا، الملقاة على اللحاف، دون حراك، وأوسعتها لثماً، بقبلات طويلة هادئة.

في الماضي أيضاً كنت أُقبل يديها أحياناً، لكنها كانت تسحبهما دائماً، بوجل عاجل خجول. أما الآن فلم ترفض هذه الملاطفة، وراحت بيدها الأخرى الحرة تمسد شعري بحنان.

وسألت بهمس:

- هل تعرف كل شيء؟

أحنيت رأسي بصمت. صحيح أنّني لم أفهم كل شيء من رواية نيكيتا نازاريتش، لكنني لم أرغب بإزعاج أوليسا وإنكاء جرحها. لكن ما إن

خطرت لي فجأة فكرة الإهانة، التي تعرضت لها، حتى تملكتني سورة غضب عارم.

وصحت، بعد أن انتصبت، وأنا أشد قبضتي:

- أوه! ليتني كنت هناك في ذلك الحين. إذن لـ... إذن لـ...

وقاطعتني أوليسا بلطف:

- كفاية... يكفي. لا تغضب يا عزيزي.

لم أعد قادراً على كبت الدموع، التي تضغط على حلقي، وتحرق عيني منذ وقت طويل. فانكببت بوجهي على كتف أوليسا، وأجهشت بالبكاء بمرارة، بدون صوت، وأنا أرتجف بكل جسمي.

- أنتَ تبكي؟ أنتَ تبكي؟ - اختلطت في صوتها الدهشةُ والحنان والتأثر - يا عزيزي... هلا توقفت، توقف... لا تعذب نفسكَ يا عزيزي... فكم أنا مرتاحة لوجودي بقربك. لا داعي لأن نبكي، ما دمنا معاً. دعنا نقضي، على الأقل، الأيام الأخيرة بمرح، كي لا يكون الفراق قاسياً علينا.

رفعتُ رأسي بذهول. فجأة حطَّ شعورٌ مسبقٌ غامضٌ بثقلهِ على قلبي.

- الأيام الأخيرة يا أوليسا؟ ولماذا الأخيرة؟ ولماذا علينا أن نفترق؟

أغمضت أوليسا عينيها، ومرَّت عدةُ ثوانٍ من الصمت، ثم قالت بلهجة حاسمة:

- ينبغي أن نفترق يا فانيتشكا. سوف نغادر مع جدتي، حال تحسني قليلاً، لا يجوز لنا أن نبقى هنا بعد الآن...

- هل تخافين شيئاً؟

- كلا يا عزيزي، لست أخاف شيئاً، إذا ما دعت الضرورة. لكن ما الداعي لدفع الناس إلى الخطيئة؟ ربما لا تعرف... فأنا هناك... في بيريبرود، أطلقت التهديدات، من شدة غضبي وخجلي... والآن يكفي أن يحدث أي شيء حتى نُتَّهم: إذا ما نفقت الماشية، أو إذا ما احترق منزلُ أحدهم - سيكون الذنب ذنبنا - ثم رفعت صوتَها، مخاطبة مانويليخا - أليس صحيحاً ما أقول، يا جدتي؟

وتمتمت العجوز، وهي تقترب، وقد لامست أذنها براحة يدها:

- ماذا قلت يا حفيدتي؟ أعترف أنني لم أسمع.

- أقول: إنَّ أية مصيبة تحلُّ الآن في بيريبرود، سوف نتَّهمُ بها.

- أوخ هذا صحيح، هذا صحيح، يا أوليسا، سوف نتهم بكل شيء، نحن المسكينَتَيْنِ... لن يتركونا نعيش وإياك في طمأنينة... سوف يقودوننا إلى الهلاك، هؤلاء الملعونون... وكيف طردوني من القرية آنذاك... آه؟... ألم يحدث الأمر نفسه؟ فلقد هددت... من شدة الحزن... إحدى الحمقاوات - وإذا بابنها يموت، «ولم يكن لي دخل في ذلك، لا من قريب، ولا من بعيد»، وكادوا يقتلونني، الملاعين... راحوا يقذفونني بالحجارة، وأهرب منهم، وأنا أحاول حمايتك، وأنت طفلة صغيرة، وفكرت بيني وبين نفسي، طيب، فلأعاقب أنا، لكن ما ذنب الطفلة البريئة؟... بكلمة واحدة... إنهم برابرة، وحوش أنجاس.

- لكن إلى أين ترحلان؟ ليس لديكما أقاربٌ ومعارف في أي مكان... وأخيراً لا بد من النقود، لكي تستقرا في المكان الجديد..

وقالت أوليسا باستخفاف:

- سوف نتغلب على ذلك بطريقة ما، وسنجد النقود لدى الجدة، فقد وفرت بعضاً منها.

واعترضت العجوز بتبرم، وهي تبتعد عن السرير:

- أية نقود؟ كوبيكات اليتامى، إنها مغسولة بالدموع...

وهتفت، وأنا أشعر بلوم مر، مؤلم وسيء لأوليسا:

- أوليسا وماذا بشأني أنا؟ لا تريدين حتى مجرد التفكير بي.

نهضت نصف نهضة، ودون خجل من حضور الجدة، أخذت رأسي بيديها، وقبلتني عدة مرات متتالية في جبيني وخديَّ.

- إن أكثر من أفكر به يا عزيزي هو أنت. لكن... الواقع... لم يكتب لنا أن نكون معاً... هذا هو الأمر... ألا تذكر كيف كشفت طالعك بالورق؟ الواقع أن كل شيء جرى، كما كشف الورق آنذاك. إذن القدر لا يريد سعادتنا أنا وإياك... ولولا ذلك، هل تعتقد أنني كنت سأخشى شيئاً؟

وصحت وقد نفد صبري:

- هل عدت إلى القدر من جديد يا أوليسا؟ لا أريد أن أصدقه... لن أصدق أحداً البتَّة...

وهمست أوليسا بخوف:

- أوخ، كلا، كلا.. لا تقل هذا. لست خائفةً على نفسي، بل عليك يا عزيزي.

- كلا، الأفضل أن لا تبدئي الحديث عني.

عبثاً حاولت تغيير قناعة أوليسا، عبثاً رسمت أمامها لوحات السعادة الرخية، التي لا يعكرها، لا القدر الغاشم، ولا الناس الأشرار الأجلاف. لكن أوليسا لم تتوقف عن لثم يدي والقول، وهي تهز رأسها نفياً، وتؤكد بإصرار:

- كلا... كلا... كلا... إنني أعلم، إنني أرى. لن نعرف شيئاً سوى العذاب... لا شيء غيره... لا شيء غيره...

أخيراً سألتها، وأنا في حيرة وارتباك من هذا العناد الوسواسي:

- طيب في كل الأحوال هل ستخبرينني عن يوم الرحيل؟

فكرت أوليسا قليلاً، وفجأة افتر ثغرها عن ابتسامة ضعيفة:

- سأجيبك عن ذلك بحكاية قصيرة... ذات مرة رأى الذئب، وهو يجري في الغابة، أرنباً، فقال له: «أيها الأرنب، يا أرنب، سوف آكلك». وراح الأرنب يتوسل إليه: «اعف عني أيها الذئب، فأنا أريد أن أعيش أكثر. ثم إن لديَّ أولاداً صغاراً في البيت». لكن الذئب لم يوافق. عندها قال الأرنب: «حسناً. أمهلني، ولو ثلاثة أيام، وبعد ذلك تأكلني. سأشعر حينها أن الموت أسهل». أمهله الذئب ثلاثة أيام، وظل خلالها يقف له بالمرصاد. مر يوم، ومر ثان، وأخيراً أوشك الثالث على الانصرام. فقال الذئب: «والآن استعد، فقد حان أجلك». عندها راح أرنبي يبكي بدموع حارة «آخ، لماذا أمهلتني هذه الأيام الثلاثة، أيها الذئب. ليتك أكلتني مذ رأيتني، فأنا لم أعش خلال هذه الأيام الثلاثة، بل بقيت أتعذب». إن هذا الأرنب على حق في ما قاله، ما رأيك يا عزيزي؟

بقيتُ صامتاً، وقد تملَّكني هاجسٌ كئيبٌ بأنَّ وحدتي باتت وشيكة. فجأة نهضت أوليسا. وجلست على الفراش. وعلى الفور أصبح وجهها جدياً.

وقالت مع وقفات بين الكلمات:

- اسمع يا فانيا... قل لي: في الفترة، التي أمضيناها معاً، هل كنت سعيداً؟ هل كنت مسروراً؟

- وهل هذا سؤال يسأل، يا أوليسا؟

- انتظر... هل شعرت بالندم أنّكَ تعرفت إليَّ؟ هل كنت تفكر بامرأة أخرى، وأنت تقابلني؟

- ولا لحظة واحدة. وليس فقط بحضورك، بل وفي بقية الأيام، لم أفكر بأحد غيرك.

- هل شعرت بالغيرة؟ هل سبق أن كنت مستاءً مني؟ هل كنت تشعر بالملل معي؟

- أبداً، يا أوليسا، أبداً.

وضعت كلتا يديها على كتفي، ونظرت في عيني مباشرة، بحبٍّ لا يوصف، وقالت بلهجةٍ مقنعةٍ، كأنها تقرأ مستقبلي في عيني:

- إذن فاعلم يا عزيزي أنَكَّ لن تذكرني بالسوء البتّة. بعد أن نفترق وإياك، ستعاني كثيراً، ستقاسي الأمرين. للوهلة الأولى... سوف تبكي، ولن يقر لك قرار. ومن ثم سيزول كل شيء، وسوف يلتئم كل شيء. لكنك سوف تفكر بي دون شجن، بل بكل راحة وبهجة.

من جديد ألقت برأسها على الوسائد، وهمست بصوت ضعيف:

- والآن اذهب يا عزيزي... اذهب إلى البيت يا حبيبي... لقد تعبتُ قليلاً. انتظر... قبّلني... لا تخف من الجدةَّ... فهي ستسمح. ستسمحين يا جدتي، أليس كذلك؟

وهمهمت العجوز، باستياء:

- طيِّب، ودعيَّه، ودعيَّه كما يجب. لماذا التكتُّم أمامي؟... فأنا أعرف كلَّ شيء من زمان...

وقالت أوليسا، وهي تلامس بإصبعها عينيها، خديها وثغرها:

- قبِّلني هنا، وهنا أيضاً... وهنا.

وصحت خائفاً:

- أوليسا! إنَّك تودعينني بطريقة، كما لو أنّنا لن نرى بعضنا، بعد الآن.

- لا أعرف، لا أعرف يا حبيبي، لا أعرف شيئاً. والآن اذهب، برعاية الله. كلا مهلاً... دقيقة أخرى... قرِّب أذنك... هل تعرف على ماذا أنا نادمة؟...

وهمست، وهي تلامس خدي بشفتيها - على أنني لم أرزق منك بولد. آخ، كم كنت سأُسَرُّ بذلك.

خرجت إلى مصطبة المدخل، برفقة مانويليخا. كان نصف السماء مغطَّى بسحابة سوداء، ذات أطراف حادة مجعدة، لكن الشمس ما زالت تضيء الكون، وقد مالت نحو الغرب. وفي هذا الخليط من النور والظلمة الزاحفة، كان ثمة شيء مشؤوم. نظرت العجوز إلى الأعلى، وقد حجبت عينيها براحتها، كما المظلة، ثم هزّت رأسها بصورة معبرة، وقالت بلهجة مقنعة:

- عاصفة رعدية ستحدث اليوم فوق بيريبرود. ولسوء الحظّ سوف تترافق بالبَرَد.

ـ ١٤ ـ

وصلت مشارف بيريبرود، حين أخذت الزوبعة المفاجئة تدوم، وترفع أعمدة الغبار على الطريق، وسقطت قطرات المطر الأولى، الثقيلة والمتباعدة.

لقد صدقت توقعات مانويليخا. فالعاصفة الرعدية، التي تجمعت طيلة هذا اليوم الحار، الخانق بشكل لا يطاق، هبت بقوة غير عادية، فوق بيريبرود. كان البرق يلمع دون توقف تقريباً. ومن شدة قصف الرعد، راح زجاج نوافذ غرفتي يرتجف ويجلجل. في حوالي الثامنة مساء هدأت العاصفة الرعدية لعدة دقائق، لكنها لم تلبث أن بدأت بعنف أشد. وفجأة راح شيء ما ينهال على سطح البيت العتيق وجدرانه، بقرقعة تصمّ الآذان. اندفعت نحو النافذة. كانت حبات البرد، بحجم الجوز، تتساقط على الأرض باندفاع، ومن ثمَّ تقفز عالياً. ألقيت نظرة على شجرة التوت، القائمة بجوار البيت، فرأيتها تقف عاريةً تماماً، لقد أسقطت ضرباتُ البردِ القوية كلَّ أوراقها... وتحت النافذة ظهرت هيئة يارمولا، التي لا تُرَى إلا بالكاد، بسبب الظلام، إنه يجري، وقَد غطى رأسه بكنزة، من المطبخ، لكي يغلق الدرفات. لكنه تأخر. فجأة اصطدمت قطعة كبيرة من الجليد بأحد ألواح الزجاج بقوة، فكسرته، وتطايرت شظاياه الرنانة على أرضية الغرفة.

شعرتُ أنني مرهق، فاضطجعت على السرير، دون أن أخلع ملابسي. اعتقدت أنني لن أتمكن من النوم هذه الليلة، وأنني سأبقى أتقلّب حتى الصباح، من شدة الضّجَر، ولذا قررت ألَّا أخلع ثيابي، لكي أقوم فيما بعد بالمشي الرتيب في الغرفة، لأتعب قليلاً. لكن ما حدث لي شيء غريب جداً: لقد خُيَّل إلي أنني أغمضت عينيّ لدقيقة واحدة، وحين فتحتهما، رأيت أشعة

الشمس الساطعة الطويلة تتسلل من بين شقوق الدرفات، وفيها تدوم ذرات الغبار الذهبية، التي لا حصر لها.

رأيت يارمولا واقفاً فوق سريري، ووجهه يعبِّر عن الخوف القاسي وفراغ الصبر: لابد أنَّه يقف هنا منذ وقت طويل، بانتظار استيقاظي.

وقال بصوته الخافت، المشوب بالقلق:

- ينبغي أن ترحل من هنا يا بانيتش.

أنزلت رجلي عن السرير، ورحت أنظر إلى يارمولا، ذاهلاً.

- أرحل؟ إلى أين أرحل؟ ولماذا؟ هل جننت؟

فرد يارمولا على مضض:

- كلا، لم أجن. هل تعرف كم أتلفَ بردُ البارحة؟ إنَّ نصف مساكن القرية تهدم، كما لو أَنّها ديست بالأقدام. بيت مكسيم الأحول، وكوزيول، وموت، وباراكوبتشوكوف وغودي أوليفر... لقد أرسلت الساحرة اللعينة هذه المصيبة... ليتها تفطس.

في لحظة واحدة تذكرت يوم البارحة كلّه، والتهديد، الذي أطلقته أوليسا، عند الكنيسة، ومخاوفها.

وتابع يارمولا:

- القرية كلها تغلي الآن. منذ الصباح شرب الجميع حتى السكر، وهم الآن يزعقون... وعنك يا بانيتش يصرخون بالسوء... وهل تعرف ماذا يمكن أن يفعلوا؟... إذا ما قطعوا الساحرة، فهذا جزاؤها، إنه عمل عادل. أما أنت يا بانيتش، فأنصحك بالرحيل على الفور.

كانت مخاوف أوليسا في محلَّها، وكان لابد من تحذيرها، على جناح السرعة، من المصيبة، التي تتهددها مع مانويليخا. ارتديت ثيابي على عجل، ومسحت وجهي قليلاً بالماء، وبعد نصف ساعة كنت أنطلق بسرعة فائقة، باتجاه بيسوف كوت.

كلما اقتربت من الكوخ، القائم على ساقي الدجاج، ازداد قلقي الغامض الكئيب، ورحت أؤكد لنفسي بثقة أن مصيبة جديدة مفاجئة ستحل بي الآن.

اجتزت الدرب المتعرج، عبر التلة الرملية، وأنا أكاد أجري. بدت نوافذ الكوخ مغلقة، أما الباب فكان مفتوحاً على مصراعيه.

وهمست، وأنا أدخل إلى الممر، بقلب واجف:

- يا إلهي! ما هذا الذي جرى؟

كان الكوخ فارغاً، تسوده تلك الفوضى الكئيبة القذرة، التي تبقى دائماً في أعقاب الرحيل العاجل. أكوام القمامة وسقط المتاع ترقد على الأرض، وفي الزاوية يقبع هيكل السرير الخشبي...

وحين هممت بالخروج من الكوخ، بقلب مثقل بالألم ومفعم بالدموع، لفت نظري جسمٌ براقٌ، عُلِّق قصداً، في زاوية إطار النافذة. إنّه عبارة عن خيط من الخرز الأحمر الرخيص، المعروف في بوليسيه باسم «كورالوف» - الشيء الوحيد، الذي بقي لديّ كذكرى من أوليسا، ومن حبّها الرقيق السخي.

ألكسندر كوبرين

(١٨٧٠ - ١٩٣٨)

- كاتب روسي من تيار الواقعية في نهاية التاسع عشر وبداية العشرين.
- زاول مهناً متعددة كان آخرها مغنياً في جوقة وممثلاً مسرحياً.
- بدأ الكتابة في الصحف المحلية، وبرع في التحليل النفسي العميق.

من أعماله:

- اللحظة الرهيبة.
- ڤيكتوريا.
- سوار العقيق.
- المبارزة.
- مولوخ «الغول».

د. هاشم حمادي

- مترجم وباحث جامعي.
- دكتوراه في الصحافة من جامعة موسكو في عام ١٩٨٢.

من أعماله المترجمة:

- النظام العالمي الجديد في القرن الحادي والعشرين.
- الظلف الفضي.
- الأخوة الثلاثة.
- الحرب والسلم.
- النفوس الميتة.
- عندما تتداعى الجبال.
- آنا كارينينا.
- المساكين.
- السماء دون غرائب.
- الفيزياء في الطبيعة.
- دراما في الصيد.
- وعشرات المؤلفات الأخرى.

٢٠٢٢م